المدينة المتبدلة

رواية

الطبعة الأولى يناير ٢٠٢٠

الكتاب : المدينة المتبدلة

المؤلف : أميرة علام

تدقيق لغوي : عبد الحميد سعيد

تصميم الغلاف : محمد دربالة

رقم إيداع : ٢٧١٤٨ - ٢٠٢٠

ترقيم دولي : ٧ - ٩ - ٨٥٦٠٤ - ٩٧٧ - ٩٧٨



دار مسار للنشر و التوزيع



01020439639



massar.pub1@gmail.com



ش - حسن خطاب - قسم يوسف بيك
- الزقازيق - الشرقية

أميرة علام

المدينة المتبدلة



الإهداء

إلى أبي الغائب الحاضر.. وإلى أمي دام حضورها.
ستظلان القنديل المتوهج الذي ينير طريقي المظلم.

أنا «مالِك شريف» .. في الفرقة الرابعة من كلية العلوم قسم الكيمياء الحيوي. لا أعلم هل يتم تعريف الإنسان باسمه ، أم بملامحه ، أم ماذا ؟
فقد يكون هناك المئات في هذا العالم يحملون اسمي ، وقد يكون هناك من يحملون ملامحي .. وحده القلب هو الذي - كبصمة الإصبع - لا يتطابق مع أحد قد يتشابه فقط .
إذن فلأخبركم بما يحويه قلبي .. أحب مريم والخير والسلام والجمال والفلسفة والفيزياء ، وأكره العنصرية والفقر والسياسة والحروب وأسبابها.
أشعر دائمًا أن هذا العالم لا يليق بي .. ليس تعظيمًا لنفسي ولكنِّي أشعر بالعجز حيالَ الأشياء التي تزعجني كرؤية مسكين بلا مأوى ، أو رؤية ضحايا الحروب ، أو ضحايا العنصرية.
أودُّ أن أغير هذا العالم ، ولكن ماذا يفعل جُهد المُقل؟!
كنت أودُّ أيضًا أن أدرس الفيزياء الفلكية ، فقد أحببت هذا المجال كثيراً بعد دخولي الكلية ، ولكني اكتشفت بعدها أنَّ ذلك القسم خاص لطلاب علمي رياضيات فقط ، وكنت أنا علمي علوم .. فدرست في قسم الكيمياء الحيوي ولكنَّه لم يكن عائقاً لشغفي

بالفيزياء الفلكية ومازلتُ أقرأُ فيه بجانب دراستي .
تقول أمي أنَّ أيَّ شيءٍ لا يحدث عبثًا وإنما يحدث لحكمة ما ، لا تدركها عقولنا الآن ولكنَّنا سنعرفها فيما بعد.
ومقولتها تلك كانت عزائي في عدم دخولي القسم الذي أحب.
اليوم بالنسبة لي لم يكن عادياً ؛ لأن البروفيسور/ سامي جاويش (عالم الفيزياء الفلكية العائد من الولايات المتحدة الأمريكية منذ شهور ليستقر هنا بوطنه مصر بعد إنهاء رحلته العلمية هناك) قادم إلى الجامعة لإلقاء محاضرة وبالطبع سأحضرها .
عندما علمت بزيارته .. بحثت عنه على جوجل ومن موسوعة ويكيبيديا علمت تاريخَه المُشرِّف ، فقد تولى عدة مناصب في أمريكا أهمها «رئيس العلماء في مختبر باسادينا، حيث كان يعمل تحت إشرافه أكثر من ألف عالم»
وحصل على جوائز عديدة كـ «جائزة ناسا للبحوث ، وقلادة العلوم الوطنية الأمريكية ، وجائزة الملك فيصل العالمية ، و وسام الجمهورية من الطبقة الأولى ، والدكتوراه الفخرية من جامعة عين شمس»
كما أنَّ له أكثر من مائة بحث منشور في مجلات عالمية متخصصة في علوم الفيزياء .
كل ذلك كان دافعاً لفضولي ؛ كي أراه .
شيءٌ مؤسفٌ أنْ يكون عالمٌ جليلٌ مثلُ هذا لا يعرفه أحد ، وهناك

أناسٌ يعرفهم الجميع رغم أنَّه كان من الأفضل لو ظلُّوا مجهولين طوال حياتهم ، ولكنْ عزائي في ذلك أيضًا مقولة أمي .

صحبت اثنين من أصدقائي «مصطفى وياسين» لحضور المحاضرة بعد إقناعي لهم أنْ نذهبَ إلى القاعة قبل المحاضرة بنصف ساعة لكي ندخلَ مبكراً قبل الزحام والتدافع ، ونحصل على مكان في المقاعد الأمامية لكي نستمتع بالمحاضرة حقَ الاستمتاع .

جاءت الساعة الواحدةُ مساءً ، ودَلَفَ البروفيسور/ سامي جاويش ومعه أساتذة من القسم .

كان مرتدياً بدلة أنيقة وجسده رياضي ، لا يبدو عليه عمره الحقيقي الذي علمته من ويكيبيديا التي تقول أنه يبلغ من العمر ٦٧ عاماً ، وملامحه على الطبيعة متغيرة عن الصور قليلاً .

ابتدأت المحاضرة وسارت على نحو جيد ، استفدت منه الكثير ثم تحوَّلت المحاضرة من كلامٍ علميٍّ مثبت لشيءٍ آخر!!

حيث أخبرنا البروفيسور/ سامي جاويش عن إيمانه الشديد بفرضيّة تعدُّد الأكوان والعوالم الموازية ، وأنَّه يسعى للتواصل مع عالَم في كون آخر يشبه عالَمنا هذا ، واكتشاف ذلك إنجازٌ كبيرٌ للعالم أجمع ولكنَّه يحتاج إلى متطوع ليكونَ السبيل إلى العالَم الآخر.

أثارَ ذلك اهتمامي كثيرًا ولكنِّي آثرتُ الصمتَ وتابعتُ ردودَ أفعالِ الطلاب ، فقام واحدٌ من الصف الذي أمامي بعدما رفع

أحد ذراعيه قائلاً:
- وكيف سيتم اكتشافه يا دكتور وكيف سيذهب المتطوع إلى هناك؟
قال البروفيسور/ سامي جاويش مترددًا بعض الشيء وهو يضبط ربطة عنقه:
- مَنْ يؤمن بما أقوله وعنده الاستعداد للتطوع سأخبره بكل شيءٍ لاحقاً.
كَسَت الدهشة ملامح الجميع بعد تلك الجملة ، وهَمْهَمْ الطلاب فيما بينهم ، وسمعت واحدًا بالقرب مني يقول لمن بجواره «يبدو أنه جُنَّ « .. فقامت إحدى الطالبات بعدما رفعت أحد ذراعيها قائلة:
- وهل يوجد بالعلم مقايضة ؟ معذرةً يا دكتور ولكنَّ تاريخك المشرف وكل ما سمعناه عنك وأثارَ إعجابَنا لم يكن كافيًا لتصديق كلام مثل هذا ، ثم إنَّك بذلك التصرف كأنَّك ترغمنا على الإيمان بالأشياء التي تؤمن بها وحدك ؛ لكي نكتشف ما اكتشفته أنت -حتى الأنبياء لم يفعلوا كذلك- .
رفع طالب آخر أحد ذراعيه ووقف قائلاً:
- كما أنَّ ما تتحدث عنه يا دكتور فرضية ككثير من الفرضيات اللَّواتي لا يثبتهم دليل علمي .
(تنحنح البروفيسور/ سامي وبعد صمت قليل) قال:

- قديمًا قالوا أنَّ كوكب الأرض هو مركز الكون وكل شيءٍ يلتف حوله ، وبعد ذلك أتى كثير من العلماء مثل جاليليو ونيكولاس كوبرنيكوس وأثبتوا لنا أنَّ الشمس هي المركز وليس الأرض ، عندما قالوا ذلك أول مرة كان سخيفًا جدًا كحديثي الآن ولكنَّنا حالياً لا نُشكّك في هذا ، أليس كذلك؟
صراحةً أقنعني كما إنَّني دائماً ما أشك في وجود حياة أخرى خارج كوننا ، ليس من المنطقي أنَّ هذا الكون الفسيح الشاسع اللامنتهي أن يكون قد خُلِقَ وحده ، أو من أجلنا فقط ونحن عبارة عن ذرات دقيقية جدًا جدًا بالنسبة له ونحتاج إلى ميكروسكوبيات تُكَبِرُ ملايين المرات لكي يتم رصدنا من الفضاء .
رفع طالب آخر ذراعه ووقف قائلاً:
- نحتاج دليل إيماننا يا دكتور .. كيف نؤمن بشيء بلا دليل !
أخبرنا كيف اكتشفته ، وكيف سنتواصل معهم حتى يمكننا تصديق كلامك.
فقال البروفيسور/ سامي جاويش:
- نظرية الانفجار العظيم مثلاً من حينها والكون يتوسع لليوم .. بالتأكيد نشأت عوالم أخرى غير عالمنا هذا أليس ذلك منطقي !!
ابتسم الطالب قائلاً:
- ولكن هذا اعتقاد منك وليس دليل يا دكتور ، وكيف سنتواصل مع العالم الآخر الذي اكتشفته من الأساس ؟!

قال البروفيسور/ سامي جاويش بوجه ممتعض:
- قلتُ مَنْ يؤمن بما أقول سأخبره بكل شيء لاحقًا .
صمت قليلاً وأكمل منهياً الجدال والمهاترة:
- هل يوجد أحدٌ يصدق ما أقول وعنده استعداد لاكتشاف الحقائق؟
عمَّ الصمت أرجاءَ القاعة ، لا أحداً في هذه الجموع يصدقه ، ولكن فضولي كان يدفعني نحو تصديقه .
انتهت المحاضرة وخرج البروفيسور خائبَ الأملِ يائساً ومعه بقيةُ الأساتذة الَّذين كانوا معه دونَ أن يتحدث إلى أحدٍ.
كنت مصوِّب نظري عليه من داخل قاعة المحاضرة ، وجدتُه يهندم حُلته ، وضبط ربطة عنقه وارتدى نظارته الشمسية واتجه نحو سيارته ، فنهضت من بين أصدقائي ، وتركت الحديث داخل قاعة المحاضرة يدور حول وصفه بالمجنون وأشياء من هذا القبيل وركضت إلى خارج القاعة لألحق به ، وعندما خرجت وقفت أَجُولُ المكان ببصري حتى لمحته وهو يفتح باب سيارته ، فركضت نحوه وقبل أن يديرَ البروفيسور محرك السيارة أوقفته ، وقلت له:
- دكتور .. دكتور سامي!
فالتفت لي منتظراً ما أقول فقلت مبتسمًا وأنا أنهجُ:
- مالِك ، هذا اسمي .

صَمَتُّ قليلًا ألتقط أنفاسي ، وأكملت:
- كنت في المحاضرة التي كنت تلقيها .. أنا مؤمن بكل ما تقول .
ابتسم البروفيسور/ سامي جاويش وتهلّلت أساريره قائلاً:
- رائع.

ثُمَّ أخرجَ من جيب معطفه بطاقة تحمل اسمه ورقم هاتفه وبريده الإلكتروني وأكمل :
- تلك بطاقتي .. هاتفني ، أو أرسل لي على بريدي الإلكتروني ، سأنتظرك

*****

أخذت البطاقة وعدت إلى أصدقائي ، وجلست بينهم كما كنت في المدرج ، ووجدتهم كما كانوا أيضًا يتحدثون عن محاضرة البروفيسور/ سامي جاويش ، فلم ينتبهوا لذهابي ومجيئي ، وكان أحدهم يقول:
- ولكني عندي فضول لمعرفة كيف اكتشفه وكيف سيتواصل معهم
فقلت:
- أنا سأعرف كيف اكتشف العالم الآخر وكيف سيتواصل معهم
قال مصطفى صديقي:
- وكيف ستعرف ؟ هل تؤمن بما يقول قبل أن تعرف ؛ لتعرف؟

أومأتُ برأسي وأنا أقول:
- بالضبط سأُؤمن بما لا أعرفُ حتى أعرفَ ، وعلى كلٍ لن أخسر شيءٍ .
ضحك ياسين صديقي الآخر وقال:
- إنَّه مجنون .. لا أعلمُ كيف كان يتولى منصب رئيس العلماء في مختبر باسادينا !
انفعالاته اليوم في المحاضرة كانت تقول أنَّ عقليته عقلية طفل لم يبلغ العاشرة ، ربما يقول ذلك ؛ لكي ينال الشهرة.
فقلت:
- وربما يكون على صواب ، أو هناك سرٌ ما.
نهض مصطفى من بيننا وقال:
- دعكُم من هذا المختل ، وهيا لنذهب إلى الكافتيريا .
نهضنا جميعاً لنتجه إلى وجهتنا بعدما أحبطوني بآرائهم ، فوضعت البطاقة في جيب بنطالي الخلفي ولكنِّي مازالتُ متخذاً الأمرُ على مَحْمِل الجدية .

*****

في المساء بعد انتهائي من التسكع مع أصدقائي في الجامعة ، أخرجت الهاتف ونظرت في ساعته ، وجدتها الثالثة وعشر دقائق .. علمتُ أنَّ مريم حبيبتي قد انتهت من محاضرتِها الأخيرة منذ

وقتٍ قليل ، فكتبت رقم هاتفها وضغطتُ اتصال وانتظرت حتى فتحتْ المكالمة وقلتُ:

- أينَ أنتِ؟

قالت:

- عند كلية تجارة.

- حسنًا أنا قريب منك ، سآتي الآن .

- حسنًا ، في انتظارك.

بعد قليل رأتني مريم قادمًا ، كانت تجلس وسط أصدقائها على أحد دَرَجَ الجامعة ، فنهضتْ من بينهم مبتسمةً فورَ رؤيتي وقالت:

- ها هو مالِك قد أتى .. وداعًا.

قالت الأخيرة ملوحةً لهم ثم اتجهت نحوي ، سرنا معًا باتجاه أحد أبواب الجامعة للخروج ، فقالت مريم:

- كيف كانت محاضرة البروفيسور/ سامي جاويش ؟ لو لم يكن عندي اختبار لكنت حضرتها معك ولكن لا بأس هيا أخبرني كل شيءٍ بالتفصيل .

ضحكت قائلاً:

- اكتشف عالم آخر يشبه عالمنا هذا ويحتاج متطوع ليكون سبيل الوصول إلى هناك ، ولكنْ لم يخبرنا كيف اكتشفه ؟ ولا كيف سنتواصل معهم ؟ قال من يتطوع سيخبره بكل شيءٍ

عقدت مريم حاجبيها وقالت بتعجب:
- وهل تطوع أحد ؟!
نظرت لها ثم قلت وأنا أضع يدي على صدري:
- أنا.
ضحكت مريم وهي تقول:
- هل بالفعل تطوَّع أحد ؟
قلت بجدية:
- خرج من المحاضرة دون أنْ يتطوع أحد ، ولكنِّي ركضت خلفه ؛ لأخبره بتطوعي وسَرَهُ ذلك كثيرًا .
قالت مريم باندهاش:
- هل جُنِنْتَ .. أتُفكر نفسك ستتطوع في جميعة رسالة للأعمال الخيرية ؟ إنَّه عالم آخر افتراضي ، أتدرك الأمر؟!
سَرَنِي خوفُ مريم عليَّ فضحكت قائلاً:
- مهلاً مهلاً بالطبع لن أذهب لعالم آخر.. أنا فقط أخبرته بتطوعي لأعلم كيف اكتشفه وكيف سيتواصل معه ، وبعد ذلك سأخبره أنَّ طريقة التواصل لا تناسبني ، لستُ مجنونًا حتى أنتقل إلى عالم آخر وأتركك ، حتى إن كان حقيقي أيَّتها الغبية.
ضحكت مريم وقالت مداعبة:
- ومن أين لي معرفتي بنواياك الخبيثة !
- أتعلمين ! المحاضرة كانت طريفة لأبعد حدّ ، حتى الجميع

ظنَّوه مجنونًا ، ولكنِّي قلتُ لن تضرَني المعرفة - حتى إن كانت خاطئة - فمعرفتي للخطأ في حد ذاتها معرفة .
قلت ذلك وكنا قد خرجنا من بوابة الجامعة ، وجاءت حافلة فأوقفتها وصعدنا بها

*****

بعد يومين كانت قد أثارت محاضرة البروفيسور جدلاً واسعًا على الساحة العلمية وكنت مازلتُ لم أحسم أمري في تواصلي معه ، ولكنْ الثامنة مساءً كنت في حجرتي أمام اللَّاب توب أتصفح الفيس بوك كالمعتاد في هذا الوقت ، فأرسل ياسين لي برسالة يقول أنَّ البروفيسور الآن ضيف في أحد القنوات الفضائية ، وأنَّ المتصلين يسخرون منه فأسرعت إلى الخارج ، وأخذت الريموت كنترول من جوار أمي كانت تشاهد أحد المسلسلات اللَّاتي تتابعهّن ، فقلت لها:
- معذرةً.. سأشاهد شيئاً مهماً .. شاهديه في الإعادة .
لم أترك لها فرصة لمعارضتي وحوّلت عن القناة وجلبت القناة التي تستضيف البروفيسور غير مبالياً بغضبها لتحويلي عن المسلسل الذي تشاهده ، وجلست أشاهد باهتمام .
رضخت أمي لِما فعلت وصمتت مستاءةً ؛ حتى أعطيها الريموت ثانية ، سألتْ المذيعة البروفيسور:

- وهل هناك خطةٌ لرجوع المتطوع إلى الأرض ثانية ؟!
قال البروفيسور واثقاً:
- بالتأكيد .
قالت المذيعة ملطِّفة:
- يا حظ المتطوع سيعرف كل ما نريد معرفته .
ضحك البروفيسور وقال ملطِّفًا أيضًا:
- بإمكانك التطوع وتعرفين كل شيء .
ضحكت المذيعة قائلةً:
- لا، زوجي وأولادي يريدونني .
خرجت أمي عن صمتها وقالت:
- ما هذه السخافة ! أعطني الريموت !
- انتظري يا أمي أرجوكِ !!
قالت أمي غاضبةً:
- لا لن أنتظر.. اعطني الريموت يا مالِك من فضلك ، مذيعة سخيفة ورجل لا أعلم من هو يقولان أشياء لا تدعو للابتسام حتى ، ثم يُقَهْقِهَا .. ما المثير في هذا القرف؟
لا أعلم ما الذي أغضبها في ذلك ، يبدو أنني حوّلت عند مشهد مهم في المسلسل الذي كانت تتابعه ، على كلٍ كنت قد استنتجت شيئاً خطيراً جعلني أحسم أمري في تواصلي مع البروفيسور ، فأعطيت لأمي الريموت ، وذهبت إلى حجرتي ، أخرجت البطاقة

التي أعطاني إياها البروفيسور لأنقل منها عنوان بريده الإلكتروني وفتحت الإيميل وأرسلت له رسالة تتضمن الآتي:

- مرحبا يا دكتور، أنا مالِك الذي حدثتُك في الجامعة أينَ ومتَى سنلتقي فأنا مليءٌ بالشغف.

(فحلقته بالتأكيد شاهدها الكثير وبالتأكيد سيجد بعض المتطوعين ؛ لذلك حسمت أمري قبل أن يجد بديل)

بعد أربعة ساعات جاءني رد البروفيسور:

- أهلا بك يا مالِك ، أنتظرك بعد ثلاثة أيام التاسعة مساءً في هشا العنوان «٣ شارع محمد مراد عقار رقم ٥ الدور التاسع»

مرتْ الأيام والساعات ببطءٍ ثقيلٍ وذهبتُ إلى العنوان المراد وأنا مليءٌ بشغف المعرفة ، فكانت معرفتي لمثل البروفيسور/ سامي جاويش بالنسبة لي بمثابة كنز اكتشفه.

ترجَّلت من سيارة الأجرة في عنوان الشارع الذي أعطاني إياه في مدينة نصر، وظللّت أَدُورُ ببصري ، أتفقدُ أرقام العقارات حتى وجدتُ رقم عقار البروفيسور، فدخلتُه واستقليت المصعد الكهربائي ، ونزلت في الطابق التاسع ، ووقفت أمام الشقة قليلًا أُهندم ملابسي ، ثُمَّ طرقْت الباب ، فتح لي البروفيسور/ سامي جاويش وكأنه كان خلف الباب ينتظر طرقاتي ، كان مرتدياً ملابس رياضية ، وقال مبتسمًا:

- تفضَّل ، تفضَّل !

يبدو أنَّ البروفيسور كان ينتظرني أكثر من انتظاري أنا لمقابلته ، ويبدو أيضاً أنَّ معرفته لأحد يصدقه بالنسبة له بمثابة كنز .
دخلتُ خلفَ البروفيسور شقتة الواسعة دون أن ألتفتُ يميناً أو يساراً ، دعاني للجلوس على مقعد وثير في الصالة وقال:
- اجلس سأعد لك كوباً من الشاي ، وآت .
جلستُ وظللّت أَدُورُ بعيني في أرجاء المكان ، المطبخ كان في الصالة بعيدًا ، على الطراز الأمريكي وأمامي تلفاز كبير، وجوار التلفاز شرفة صغيرة ، وعلى يميني حائطٌ مُعلَّقٌ عليه شهادات ، وصور كثيرة ، وطاولة عليها مزهرية بها ورودٌ ذابلةٌ ، وعلى يساري ردهة مؤدية للغرف .
كانت الشقة مرتبة ، ولكنِّي شعرتُ أنَّها خالية من أيِّ أُناسٍ آخرين ، وعلى ما يبدو أنَّ البروفيسور يعيش وحيدًا.
عاد البروفيسور، وانتزعني من ظنوني وهو يحمل صينية عليها كوبين من الشاي وقنينة مياه وكوب فارغ ، جلس على مقعد يوازي مقعدي ، ووضع الصينية أمامنا على طاولة صغيرة ومسك قنينة المياه فتحها وصبّ في الكوب الفارغ وأعطاه لي وهو يقول:
- معذرة على الموعد المتأخر، كنت مشغول كثيرًا اليوم .
أخذت الكوب ارتشفت منه وقلت:
- لم يحدث شيء .. كان الله في عونك .
- أظنُّ أنَّه لا يوجد هناك مكان أكثر هدوءًا من شقتي هذه ؛

لذلك جعلت اللقاء هنا .
قلت وأنا أومئ برأسي مبتسماً:
- هكذا أفضل .
قلت ذلك وسَادَ صمتٌ بيننا ، كأنَّنا في مجلس عزاء ، فتنحنح البروفيسور بعد قليلٍ ليغزو هذا الصمت وقال:
- الجامعة تغيَّرت كثيرًا ، لم أدخلها منْذ أكثر من ١٥عاماً ، فكان التغيير واضحًا .
- تغيّرت كيف ؟ هل للأفضل أم للأسوأ؟
- للأفضل بالطبع ، ولكنْ على مستوى جامعات أمريكا ، فإنَّها سيئة وينقصها إمكانيات كثيرة .
- هذا معروف .. الله المستعان .
- ونعم بالله .
لم أعرف بماذا أرد فصمتُّ قليلًا ثم قلتُ:
- ما الأمرُ يا دكتور؟ كيف اكتشفت العالم الآخر؟ وكيف سنتواصل معه؟ هل اكتشفته أنت وعدة علماء آخرين وتعملون على هذا الأمر من سنين أم ماذا؟
هرش البروفيسور في ذقْنِه وهو يقولُ:
- منْذُ ثلاثِ سنواتٍ رأيتُ في منامي أنَّني أقود حافلةً ، وبها مجموعة من الناس خلفي يضحكون
، وبعد خمسةِ أيامٍ كنت أسيرُ في شارع ملبري في نيويورك ،

وأوقفتُ حافلةً كان سائِقها ثمِلْ وجميع الركاب ، يبدو أنَّهم كانوا في ملهَى ليلي جميعاً ، نجونا من اصطدامين ولكنِّي أخذتُ منه السيارة ، وأكملتُ أنا الطريق ، وكان جميع من خلفي يضحكون ، فتذكرت الحلم الذي رأيتُه منْذُ خمسة أيامٍ .
ومرة أخرى رأيت أنَّني أتكّرمُ في حفلٍ ، وبعد عدة أيام أخذْتُ جائزة الملك فيصل العالمية وتكرّمتْ ، فتذكرت أيضاً الحلم الذي رأيته.
لا أَعِلَمُ ما علاقةُ العالَم الآخر بأحلامِه تلكْ .. أعتقد أنَّه بدت عليَّ علامات البلاهة والاستغراب فقلتُ:
- سبحانَ الله .
ظلَّ البروفيسور يقصُ لي أحلاماً رآها وتحقَّقت .. كان بعضها مثيراً للضحك ، ولكنِّي لم أضحك ، أظن لو كان معي أصدقائي لَكُنَّا الآن غارقين في نوبات ضحكٍ هيستيريٍ ، وكان يقصها غير مبالياً ، يبدو أنَّه مجنون كما قال أًصدقائي ، فمازلتُ لا أعلم ما علاقة هذا بالعالَم الآخر فتنحنحتُ وقلتُ بتردُّدٍ:
- معذرةً يا دكتور، هل هذا له علاقة باكتشاف العالَم الآخر؟
مسك البروفيسور ذقنه ، وظل يعبث بها وهو ينظر أمامه ، كأنَّه يفكر فيما سيقول ، حتى قال بصوتٍ منخفضٍ بعضَ الشيءِ:
- العالم الذي اكتشفته رأيته في الحلم ، ورأيت طريقة التواصل وكل شيء .

أعلم أنك لن تصدق هذا وربما ستتهمني بالجنون وهذا حقك ، ولكنْ صدقني هناك عالَم آخر بالفعل .
فَغَرَّ فمي تلقائيًا اندهاشًا مِمَّا أسمعه فضحكت وقلت:
- يبدو أنَّك تمزح .
قال البروفيسور بجدية:
- لا، لا أمزح .
تيقنت الآن أنَّه مجنونٌ بالفعل ، كان لابد أن تكتب ويكيبيديا ذلك .. فقلت ساخرًا:
- وكيف هي طريقة الانتقال إلى هناك؟ هل عن طريق الحلم أيضًا !
فوجئتُ به يقول بكلِ جديةٍ:
- أجلْ ، ستنام ووقت حلمك سأدخلك به ، ستدخل في حلمك الذي هو نفسه العالَم الآخر .
- وكيف ستعرف أنِّي أَحِلُم من الأساس ؟
قلتها باستخفافٍ ، فقال البروفيسور:
- وقت الحلم ترفّ الجفون بسرعةٍ غيرِ معتادةٍ ، سأظل جوارَك ، ولن يغمض لي جفنٌ حتى تحلم وأدخلك في الحلم ، وعلى كلٍ لن تخسرَ شيئاً إذا لم يكن كلامي حقيقي .
ابتسمت ساخرًا وهو يتكلم بثقة شديدة ، ويقول أشياءاً لا تُصدَّق ، بعيدة كلَ البعدِ عن الخيال ، ونهضت استعدادًا للمغادرة وأنا

أقول:
- ظننّت أن الانتقال سيكون بسفينة فضائية ، أو عبر ثقبٍ دوديٍ مثلًا ، أو إنَّك تلقيتَ إشارات وتعمل على هذا الاكتشاف منذ سنوات .. معذرةً يا دكتور فما تقوله جنون .
ضَحِكَ البروفيسور وقال:
- وهل تثق بالسفن الفضائية والثقوب الدودية لِأَنْ تذهب إلى عالم مجهول ، ولا تثق في الحلم وأنت نائم ؟!
كَمْ يحب الإنسان أن يشقّ على نفسه !!
أولاً حتى الآن لم يتم تصنيع سفينة فضائية مُهيئة للسفر خارج المجرة ، وعندما تُصنع لنْ نكون حتى رفاتاً .. سنكون قد تحلّلنا ولم يبقَ منَّا شيءٌ ، للأسف يا عزيزي إنَّنا وُلِدنَا في وقتٍ مبكرٍ مِنَ التاريخ .
والأمر ليسَ بهذه السهولة التي توجد في أفلام الخيال العلمي ، السفر إلى مجرة أخرى في سرعات تحت ضوئية سيستغرقُ ملايينَ السنواتِ .
على كلٍ فكّرْ في الأمر برويةٍ ، وكما أخبرتك لنْ تخسرَ شيئاً ، ربما ترى ما لا يراه غيرُك بعد آلاف السنوات .
لم أقتنعْ بكلامه وغادرتُ .
الآن فهمت لِمَ أصرَّ ألَّا يخبرَ أحداً في المحاضرة وفي البرنامج الذي استضافه عن ماهيةِ اكتشافه وطريقة التواصل ، بالتأكيدِ حتى

لا يقولَ أحدٌ أنَّه مجنون ، رغم أنَّهم قالوا ذلِك أصلاً ولكنْ ربما لو قال ذلك في المحاضرة أو البرنامج لأخذوه إلى مصحة للأمراض العقلية

*****

لم أستطعْ النوم ، ظللّت أتقلّب في الفراش بضجرٍ ، وبينما كنتُ أفكِّر في كلام البروفيسور هناك جملة جعلتني أتوقف عندها
«للأسف ياعزيزي إنَّنا وُلِدنا في وقتٍ مبكرٍ من التاريخ»
واعتقد أنَّه كان محقًا ، فنحن جئنا في حقبة مبكرة جدًّا من التاريخ ، بالتأكيد ما زالتْ هناك ملايين الاختراعات المثيرة للاهتمام ولم تكتشف بعد ، ربما يكونُ هناك اختراع مذهل يجعل العالم أفضل كثيراً ، كالكهرباء مثلًا لم أستطعْ تصّور العالم قبل اختراعها ، فكل شيء حولي له علاقة بالكهرباء ، حتى الملائة المفترَشة على السرير المستلقي عليه الآن لولا الكهرباء ما صُنِعَتْ .
كنت أودُّ أنْ أُولَد في وقتٍ متأخرٍ جداً من التاريخ ؛ حتى أشاهد الاختراعات المذهلة ، وحتى أعرف أنَّه قديمًا كان يوجد مرضٌ قاتلٌ اسمه السرطان ، ربما كنت أقرأ عنه بالصدفة في مقال عن الأمراض التي تعرض لها البشر عبر التاريخ ، كما أقرأ الآن عن الكوليرا والجُذام والطاعون وربما لا أعلم عنه شيئاً ؛ لأنَّه انتهى منْذُ أمدٍ بعيدٍ جدًا .

وحتى يتم اكتشاف حضارات ذكية في مجرات أخرى ، وربما يحدث طفرة بالتكنولوجيا ونتواصل معهم بشيءٍ يشبه مواقع التواصل الاجتماعي ويكون هناك مطارات للمكُّوكات الفضائية ونذهب لهم ويأتون لنا وتكون الحياة أكثرَ تطوّرًا .

مَنْ كان يفكّر قديمًا عندما كانوا يسافرون بقوافل الجمال والخيول إلى بلادٍ أخرى بالأيام والشهور أنَّه سيكونُ فيما بعد طائراتٍ تقطع هذه المسافات في ساعات قليلة ، وسيكون هناك شيءٌ يُدعَى الإنترنت ، ومواقع تواصل تجعل الخطابات تصل في لحظة إرسالها .

هذا التفكير جعلني آسفا أنَّني وُلِدتُ الآن ، رباه لماذا لم أُولَدْ قبل نهاية الكون بوقتٍ قليلٍ ؟

قد يكون البروفيسور على صواب ويمكِّنُنِي من الانتقال لعالَمٍ آخرٍ وأَرى ما لا رآه غيري من قبل !

بالتأكيد لا .. هذا ضَرْبٌ من الجنون ، كيف لا أزالُ لم أقتنعْ تمامًا أنَّه مجنونٌ ، ربما أصبح خَرِفْ ، ويرى كما يرى المهلوسون ؛ لأنه يَخْرِّفُ بالفعل ، أضأتُ هاتفي من جواري فوجدت الساعة الثانية صباحًا فقلت يائسًا:

- نَمْ يا عقلي ، نَمْ أرجوك .. هناك محاضرة في الثامنة صباحًا وأنت تفكر في هذه الأمور فلِتحترمَ نفسك يا فاشل !!

قلتُ ذلك بصوتٍ مسموعٍ ، ووضعتُ الوسادةَ فوق رأسي .

*****

دقَّ المنبه كثيراً في الساعة السابعة ولكنِّي لم أسمعْه ، علمت ذلك حينما استيقظت وحدي في التاسعة وعشرِ دقائق صباحًا ، ضاعت عليَّ المحاضرة الأولى ، سرت في اتجاهي إلى دورة المياه وأنا ألعنُ البروفيسور بداخلي ، قبَّحك الله أيُّها الجاويش الخَرِف .. لن أقولَ البروفيسور ثانية هل تفهم ! من أين جئت لي !!

كنتُ في الجامعة في تمام العاشرة ، واتجهت إلى قاعة محاضراتي وجلست أمامها على سور بنايةٍ في المكان الذي أجلس فيه أنا وأصدقائي دائمًا ، مسكت هاتفي أعبث في مواقع التواصل الاجتماعي حتى وجدتُ ياسينَ جاء وجلس جواري وقال:

- لماذا جئت متأخر ؟

قلت بحسرة:

- ليتني جئتُ متأخراً بالفعل !

لم يفهمْ ياسين مقصدي ، فوضع يده على كتفي ولم يَخُضْ في تفاصيل وقال:

- على كلٍ أنا سجلتُ حضورك ، سأذهب لأجلبَ الإفطار وآتي لأنِّي جائعٌ جدًا .. انتظر مصطفى هنا !

قال ذلك وغادر ، وبعد قليل جاء مصطفى وهو يقول مداعبًا:

- هل هناك من يجرؤ على الغياب من محاضرة دكتورة ريهام ؟!

دكتورة ريهام قلَّما فهمنا منها شيئاً ولكنها جميلة جدًا وقريبة في العمر منا ، وبرغم أنَّ محاضرتها في وقتٍ مبكرٍ إلَّا أنَّ البعضَ مِمَنْ معي في القسم كانوا كثيري الحرصِ على حضور محاضرتِها ، أجل هم بائسين لهذه الدرجة .

ضحكتُ قائلاً:

- استيقظتُ متأخرًا بسبب هذا المجنون سامي جاويش .

عقد مصطفى حاجبيه وقال مستغربًا:

- أنت مازلتَ تتواصل معه ؟

- أجل ، كما قلت لك ؛ لكي أعلم قصة اكتشاف العالم الآخر .

جلسَ مصطفى جواري وقال باهتمامٍ:

- وهل علمت؟

- علمتُ ، وتأكدتُ أيضًا أنُّه مجنون كما قلتم .

- وما الذي علمته ؟ هيا أخبرني كل شيءٍ !

تردَّدتُ أقصُ عليه أم لا .. شعرت أنَّني إذا قصصتُ عليه سأكون بذلك أخون ضميري وأخترق مبادئي ، فربما لا يريد البروفيسور أن أخبرَ أحداً ، فبدَّلتُ الحديثَ ؛ حتى ينسى ، وضحكتُ قائلاً:

«هيا أخبرني كل شيءٍ بالتفصيل» هذه مقولة مريم، لعلَّها تقولها بمعدل خمسين مرة في الاسبوع .

قال مصطفى ضاحكًا:

- أفضل من أنْ تكونَ مقولتُها لا بُدَّ أنْ نحصلَ على تقديرٍ هذا

العام ، تقريباً رنا تقولها بمعدل مائةِ مرةٍ في الاسبوع .
تلهَّى مصطفى برنا حبيبته التي معنا في نفس القسم .. أعرفُ تمامًا كيف أجعله ينسى أي شيء.
ظلَّ يقصُّ لي آخرَ ما فعلته معه عندما حاول أن يصرِّح لها بحبه للمرة الألْف تقريبًا ،
يحبها منذ عامين ولكنَّها تعتبره صديق لا أكثرَ من ذلك ولا أقل ، لا أعلم هل هي غبية لهذه الدرجة ، أم إنَّها تستغبى ولكنْ من يستغبى عن حب كهذا بلْ ويستغله لا يكون إلا غبي ، إذنْ هي غبية ومصطفى أَغبى منها لأنَّه لا يتوقفُ عن حبها .
بعد دقائقٍ جاء ياسين ومعه فُطورنا المعتاد وهو لفائف البطاطس بـ «الكاتشب» ، وجدنا نتحدثُ عن رنا فأعطانا لفائِفَنا وجلس جوارنا وهو يقول موجهاً حديثه لمصطفى:
- أعتقد أن رنا لا يوجد عندها كيمياء المشاعر، هذه واحدة لا يوجد في مخها سوى الدراسة ، ربما إن فتحتْ قلبها أيضًا تجد داخله حب للتقديرات فقط ، أَجْرِ لها «تعديل وراثي» من جديد يا مصطفى واعطيها هذه الصفة ربما تحبك !!
ظللّنا نتحدث عن كيمياء المشاعر حتى سمعتُ رنين ، كانت المتصلة مريم ؛ ففتحت المكالمة قائلًا:
- ماذا هناك؟
وأكملتُ متسائلاً:

- عندك محاضرة الآن؟
فأجابت:
- لا ، تغيَّب الدكتور عن محاضرة اليوم وتغيَّبت صديقتي أيضًا ، وأنا الآن جالسة وحيدة شريدة كغزالة ضائعة في صحراء الربع الخالي .
ابتسمتُ قائلًا:
- وأين أنتِ ؟
- أمام الكلية .
- حسنًا نصفُ ساعة وسأكون عندك .
ضحكتْ وهي تقول بثقة:
- لنْ أسمحَ لك بأكثر من خمس دقائق .
أغلقتُ معها ونظرتُ إلى مصطفى وياسين وقلتُ:
- لنْ تسمحَ لي بأكثرِ من خمسِ دقائق .
نزلتُ من فوق السورِ وأنا أُكْمِلُ:
- سأذهب الآن.
قال ياسين مداعبًا:
- انتظرْ يا رجل ، هلْ ستتركني مع مصطفى وحكايات رنا المتكررة وحدي !
أخذت قضمه من لفافة البطاطس وقلتُ وأنا سائرٌ:
- هذا هو المعتاد تعايش .. تعايش .

*****

اتجهتُ إلى مريم ظللّتُ أَجُولُ ببصري وأبحثُ عنها أمامَ كليتِها ، حتى سمعتَها تقول مداعبةً:

- لقد ذهبت من هنا .

نظرت تجاه الصوت ، فوجدتُها جالسةً على أحد البنايات تحت شجرةٍ ، تُلَوِّحُ لي بيديها مبتسمةً ، فابتسمتُ أنا أيضًا بدوري كالعادة فورَ رؤيتي لها ، ومشيت نحوها وجلست جوارها فقالت وهي تأرجِحُ قدميها:

- ما هذا الإرهاق البادي على وجهك ؟!

- لم أَنَمْ جيدًا .

قالت كأنها تذكَّرت شيئًا ما:

- صحيحٌ هل ذهبتَ إلى البروفيسور أمس كما أخبرتني؟

أومأت برأسي وأنا أقول:

- أجل وهذا ما جعلني لم أنمْ جيدًا .

عقدتْ حاجبيها وهي تقول:

- لماذا؟ بماذا أخبرك؟ هيَّا قصّ لي كلَ شيءٍ بالتفصيل !

ضحكتُ على جملتها الأخيرة المعتادة ، وقصصت لها كل ما حدث ، لم أتردّد لحظةً واحدةً في أنْ أخبرها أَمْ لا كما فعلت مع مصطفى ، فمريم أشعر وكأنَّها ممتزجة بروحي ، وعندما أحدثها أشعر

وكأنَّني أتحدث إلى نفسي ، لا يخجلني شيءٌ ولا يقلقني شيءٌ ، أعرف أنَّها تفهمني قبل أنْ تومئ برأسها دلالةً على أنَّها تفهمني حتى ، ربَّما هي الإنجاز الوحيد لي في الحياة حتى الآن ، هي الإنجاز الذي يجعلني راضيًا عن نفسي لو لم أنجز شيئاً في حياتي بعده .

ضحكنا كثيرًا وأنا أقصُّ لها ، وأَكثرُ ما أضحكنا أحلامه العجيبة ، فقالت مريم بجديةٍ:

- تقول أنَّ تاريخَه العلمي مُشّرفٌ .. أشعر أنَّه ربما يتناول عقاقير لعلاج مرض ما ، ولها أعراض جانبية كهذه التخاريف أتمنَّى ألَّا تقصَّ شيئاً من هذا لأحد ، لا تجعله عرضةً للسخرية .

ابتسمتُ لطيبة قلبها الذي اخترتها على أساسه قبل جمالها ، لطالما حدثتُ نفسي أنَّني محظوظ بتلك الفتاة ، لا بدَّ أنَّ الله يحبني أو إنَّني فعلت شيئاً ما جميل فكان جزاءه «مريم « .. قلت لها:

- لم أخبر أحدًا غيركِ .

ابتسمتْ وهمت أن تقول شيء ولكنَّ رنين هاتفها استوقفها ، فأخرجت الهاتف من حقيبتها ونظرت في هاتفها طويلًا ، فقلت لها:

- مَنْ المتصل ؟

قالت وهي لم تحوِّل نظرها عن الهاتف:

- رقم غير مسجل أحاول تذكُّره ، أشعر أنَّني رأيت أرقامًا كهذه

من قبل ، قالت ذلك وفتحت المكالمة قائلةً:
- ألو !
صمتتْ قليلًا وقالت بتعجب:
- معذرةً .. منْ أنت ؟
ثمَّ ابتسمتْ وقالت:
- كيف حالك يا سعيد ؟
ثمَّ صمتت قليلًا وقالت:
- أشكرك ولكني سأتأخر اليوم.. من أين أتيتَ برقم هاتفي ؟
امتعضَ وجهي وأشرتُ لها بيدي أنْ تنهي المكالمة لكي أفهمَ مَنْ سعيدٌ هذا .
أومأتْ لي برأسها وهي تقول:
- سأغلق الآن لأنَّني منشغلة .
واتْبَعَتْ بلطفٍ وهي تنهي المكالمة:
- سِعدت بمكالمتك.
قلت فور إغلاقها:
- من سعيد هذا ومن أين جاء برقمك ؟!
- ابْنُ عمي وأخذ رقم هاتفي من أمي ، أول مرة يحدثني أساسًا .. لا أراه إلا في المناسبات العائلية ولكنَّ مكالمتَه هذه تبدو غريبة جدًا !!
- وماذا كان يريد ؟

- يقول أنَّه في مكانٍ قريبٍ من الجامعةِ ، وكان يريد أن يأتي ليوصِّلني بسيارته إلى البيتِ .

ارتبتُ من هذا الحديثِ وضايقَني فقلت:

- لم أرتحْ لهذا الموضوع .

قالتْ مريم:

- ولا أنا .

تذكّرت شيئًا ما رفع نسبة الأدرينالين في عروقي ، وقلت:

- وماذا عن سعِدت بمكالمتك التي قلتيها في نهاية المكالمة هذه ؟!

- هذا لطفٌ ليس أكثر .. وهو ابن عمي بالأخير .

دقَّ هاتفها ثانيةً فقطع جدالَنا ، كانت هذه المرة المتصلة أمها .. فتحت مريم المكالمة وقالت:

- مرحباً يا أمي .

صمتتْ قليلًا وقالت:

- اتَّصلَ عليَّ قبل قليل ، وقلت له أنْ يذهبَ هو لإنِّي سأتأخرَ اليوم .

صمتتْ طويلًا وقالت بغضبٍ:

- أمي !! كيف تتدخلون في أموري لهذا الحد !!

صمتتْ قليلًا مرة أخرى وقالت بنبرة هادئةٍ:

- سأغلق الآن وعندما آتي سنتحدث في هذا الموضوع .. حسنًا .

انتظرتْ قليلًا وقالت:

- وداعًا .
أغلقتْ ووجدتني أنظر لها بوجوم منتظرًا شرحها لِما يحدثُ فقالت:
- لعلَّك فهمت .. سعيد يريد خطبتي .. قالت لي أمي أنَّه عرض الموضوع على أبي ، وأبي رحَّب به وكذلك هي ، فأخذ رقم هاتفي منها ليهاتفني ويعرض عليَّ توصيلي لنتحدثَ سويًا .
قلتُ بضيق:
- وماذا سيحدث ؟
رأت في عيني الخوف ، فقالت تطمئنني:
- لنْ يحدثَ شيءٌ ، سأرفضه وانتهى الأمر .. هو لا يريد خطبتي لأنَّه يحبني ، أنا أستبعد ذلك جدًا ، أظنُّ أنَّه أراد الزواج وأبيه من دلَّه عليّ .. سيكون الرفضُ سهلًا .
لم تنجح في طمأنتي ، لأول مرة أشعر بخوف كهذا ، تصبَّبت عرقًا كثيفاً كأنَّني أشاهد فيلم رعب ، وجاء مشهد مفاجئ غير متوقع فقلت بقلق:
- تقولين أمكِ وأبوكِ يرحبان بالموضوع ، هل من الممكنِ أنْ يتمَّ إجبارك على الخطبة ؟
- بالطبع لا .
قالتها مريم ونهضتْ وهي تقول بمرحٍ:
- هيا بنا نذهب إلى «السنتر» الذي يحتوينا ، لا داعي لتوقع أمور

سيئة لن تحدث.
اطمأنيت قليلًا ، واتجهنا معًا إلى مركز الجامعة التجاري .

*****

الحاديةَ عشرَ مساءً كنت مستلقٍ على سريري .. أضبط منبه هاتفي على الساعة العاشرة صباحًا
بعد يومٍ سيءٍ جدًا بالنسبة لي من أوله لأخره ، من أول ذهابي للجامعة متأخرًا حتى مكالمة سعيد لمريم على وجه الخصوص التي جعلتني في مزاجٍ سيء ، وفكْرٍ مشتت فلم أستفدْ أيَّ شيءٍ من المحاضرة المسائية التي حضرتها .
محوت موضوع البروفيسور/ سامي جاويش من رأسي وحلَّ محلَّه موضوع مريم ، رغم أنَّها طمأنتني بعض الشيء ، ولكنْ من يريد خطبتها ابنُ عمها وليس شخصاً عادياً ، لو كان ذلك فلنْ أباليَ ، لكنِّي أعرفُ أنَّ الآباء دائماً ما يكونون منحازين لأبناءِ اخوانهم .
كنت أتوقَعُ أسوأَ الأمورِ ، لا أعلمُ لماذا أفعل في نفسي هكذا ، ولكنَّها عادةٌ سيئةٌ عندي لا بدَّ أنْ أتوقفَ عنها ، ولا بدَّ أنْ يتوقفَ عقلي عن التفكير الآن فقد قطع شوطًا كبيراً من التفكير اليوم ، ولم يتوقف لحظة واحدة ، عليه أنْ ينعمَ بالراحة ، وينامَ لكي يرحمَني ويرحمَ نفسه ، ولكنْ كيف وهو عقلي !
فقد ذكَّرني الآن بقول مريم لسعيدٍ «سعِدت بمكالمتك» .. أظنُّ

لو أنَّني لم أكن في علاقة وقالت لي واحدة بهذا الصوت الرقيق الملائكي «سعِدت بمكالمتك» لكنت وقعت في غرامها .
رباه ! يا لها من حمقاءَ غبيةٍ تعيش على سجيتها وتعامل البشر بلطفٍ زائد وهم لا يستحقون ذلك ، هذا الوغد سعيد كان لا يستحق اللُّطف ، كانت لابدَّ أن توبخَه .
لا أعلمُ متى توقَّف عقلي عن التفكير ورحتُ في النوم ، ولكنَّ منبهَ الهاتف يدقُّ الآن
وها هو ذا يوم جديد بدأ .
كان يومًا روتينيًا كالعادة .. حضرت محاضراتي وتسكعت مع أصدقائي ، وبالأخير وصّلت مريم ككل يوم .

*****

مرّت الأيام والأسابيع على تلك الوتيرة دون جديد ، موضوع البروفيسور انتهى بحلول موضوع سعيد الذي كان يريد خِطْبَةِ مريم ، وذلك الموضوع انتهى بمرور الأيام .
وفي يومٍ مشؤومٍ كنت منهمكاً في المذاكرة ليلًا ، وحدثتني مريم في الهاتف وهي تبكي وأخبرتني أنَّ خطبتها الجمعة القادمة ..
توقف الزمن قليلًا ثم قلت غاضبًا بغير إدراك:
- كيف ذلك ؟
أخذتْ شهيقاً وقالت:

- عندما قلت لك أنَّ الموضوع انتهى برفضي واقتنع أبي وأمي كنت أكذب ؛ لأنَّني ظننّت أنَّني سأستطيع إقناعهم ، فالموضوع لم ينتهِ حتى اليوم وحُسم قبل قليل «الخطبة الجمعة القادمة» .
بكتْ كثيراً ثم استأنفت حديثها:
- يقول أبي أنَّه أدرى بمصلحتي وابنَ أخيه أولى بي من أي شخصٍ آخر ، وتقول أمي أنَّني سأحبه بمرور الوقت ولكنَّ هذا كذبٌ أيضًا يا مالِك ، فأنا لم ولن أحبَ غيرَكَ .
انتظرتني لأقول شيئاً ولكنِّي لم أتكلَّم ، فقالت:
- أريدك أنْ تعلمَ أنَّني فعلتُ كل ما بوسعي لأوقف تلك الخطبة ولكنِّي لم أستطعْ ، ولم يعدْ هناك شيء آخر أفعله سوى الخضوع لأمرهم فلا تظنّ أنَّني خنت العهد معك .
كنتُ أسمعها وأنا صامتٌ كصنمٍ من أصنامِ الجاهلية فقالتْ:
- مالِك ؟
لم أردْ ، فكرَّرتها:
- مالِك !!
كان بداخلي غضب منها ومن أبيها وأمها وسعيد والعالم أجمع .. شعرت أنَّني فقدتُ النطق ، فقالت بقلق يخالطه الخوف:
- لماذا لا ترد ؟!
خرجتُ عن صمتي وتحديت الغُصَّةَ التي في حلقي وقلت بضعف:
- افعلي أيَّ شيءٍ يا مريم أرجوكِ !

قالت مريم وهي تبكي:
- والله فعلت كلَّ ما بوسعي !
ودعتها وانهيتُ المكالمة وأنا أشعر أنَّني طفلٌ في العراء تائه عن أمه ، لا يعلم ماذا يفعل
وكأنَّه حدث ثقبٌ ما في قلبي .. شعرتُ بألمِ الثقب كأنَّني أجريتُ عملية جراحية به ، وذهب التَّخدر وبقيَ الألم .
ملأتْنِي رغبةٌ عارمةٌ في البكاء .. ما كل هذا الحزن الذي ملأني على حين غرة؟!
كنتُ أودُّ في تلك اللحظةِ أن يقيمَ العالَم طقوسَ العزاءِ ليواسيني في حزني ، وتوقِّف العصافير زقزقتَها حدادًا على حزني ، وتتوقف الشمس عن الدوران تضامنًا مع حزني ، وتتوقف الأفراح والنزاعات في العالم قليلاً لينصتوا إليَّ ، لم أكنْ أعلم أنَّني ضعيفٌ كذلك إلَّا الآن .

*****

ذهبتُ في اليومِ التالِي للجامعة لكي أرى مريم وأتحدثُ معها باستفاضة ونرى ماذا سنفعل .
جلست في المكان الذي أجلس فيه دائماً ، أخرجتُ هاتِفي لأهاتفها وأعلم موقعها ، ولكنِّي وجدت هاتفها مغلق .. عاودت الاتصال ثانيةً فثالثةً فرابعةً ، وفي كل مرة كنت أسمع صوت السيدة

المستفزة السَمِجَة التي تقول بكل برود:
«عفواً الهاتف الذي تحاول الاتصال به ربَّما يكون مغلقًا أو غيرَ متاح « كنت أسبها وألعن اليوم الذي عينت فيه في شركة المحمول ، أظنٌّ أنَّها ستدخل الجنة عِوَضًا عن سبابي لها .
نزلت من فوق السور وذهبت لمريم عند كُليَّتها .. كلية الحقوق وظللّتُ واقفًا وحدي هناك أتفقد الفتيات خاصةً الذين يرتدون حجاب لونه أزرق داكن كالسماء ، فهي تعشق هذا اللون وترتديه كثيراً .
ربَّما لو لاحظني أحد لظنَّني متحرش ، ولكنْ لم يكنْ هناك أحدٌ يعبءُ بي من الأساس ، كان المارة يسيرون من أمامي ومن خلفي ومن جانبيَّ ، وبعضهم كان يصطدم بكَتفي ويعتذر دون أن يلتفت لي ويكمل طريقه .
حمدًا لله أنَّني نكرة وغير مؤثر في المجتمع ؛ لأحظى بهذه الدرجة من التجاهل المغلف بالحرية.
كنت أعلمُ أنَّ مريم عندها محاضرة الآن ، وقفت لبعد موعد المحاضرة بعشر دقائق حتى وجدت صديقتها المقربة «فرحة» .
اتجهت نحوها سريعًا وسألتها عن مريم ، فقالت بحزن:
- عرفت ماذا حدث؟
- ماذا حدث؟؟
- لقد غصب عليها أبيها أن تتزوج ابن عمها سعيد.. ألَا تعلم ؟

زفرت براحة وأنا أقول:
- أجل.. ظننت حدث شيء جديد .. ألم تخبرك متى ستأتي الجامعة ؟
- قالت أنَّها لن تأتي الجامعة لأجل غير مسمى .
- هل غيّرت رقم هاتفها ؟
- لا أظنّ .. هي أغلقت الهاتف فقط .
- حسنًا .
- قلتُ ذلك وودعتها خائبًا .

*****

جاء يوم الجمعة واستيقظت قبل موعد الصلاة بنصف ساعة ، أخذت حمامًا وارتديت ملابس أخرى وهبطتُ الدرج سريعًا من الطابق الثاني وذهبت إلى المسجد المجاور لعقارنا ،
جلست متربعًا أستمع إلى الخطبة ، لم أستمرْ في الاستماع دقيقتين وشَرُدَ ذِهني ؛ فاليوم هو يوم خطوبة مريم .
يرى أبيها أن ابن اخوه أولى بها من أي شخصٍ آخر، رغم أن سعيد ليس له أيَّ إنجاز في الحياة سوى أنَّه ابنُ أخيه ، وأنا الذي أحبُّ مريم منذ خمس سنوات ، لم يكن هذا كافيًا لأكونَ أولى بها.
أُؤمن أنَّ الحياةَ غيرُ عادلةٍ ، ولكنْ ليس بهذه الدرجة إنَّها غير عادلة ووقحة أيضًا .

أفقتُ من شرودي على صوتِ الإمام وهو يقول «استووا يرحمكم الله»
وقفت في صفي وأقام الإمام الصلاة ، ظللّتُ أدعو في كل سجدةٍ بدعاء واحد «يا الله أرجوك ساعدني» !
كنت ضعيف وكانت مريم هي قوتي الوحيدة لمواجهة هذا العالم .
وأنا في طريقي للعودة إلى منزلي كنت أفكر أنَّ مريم قطعت كل سبل تواصلي معها .. لم تأت الجامعة وأغلقت هاتفها ، أعلم أنَّه بغير إرادتها ولكن ماذا أفعل أنا بدونها !!
لا بد أنْ أفعل شيئاً ، فلن أسمحَ لحبي أنْ يضيعَ بسبب بعض الأغبياء .
طرأتْ في رأسي فكرة أنْ أذهبَ لها في بيتها .. لا أعلم ماذا سأفعل بعد ذلك ولكن أخذتني قدمي إلى طريق بيتها ، ذهبت إلى هناك وصعدت للطابق الخامس وجدت باب شقتهم مفتوحًا وسمعت أصوات كثيرة متفاوتة الأعمار وشممت رائحةَ طعامٍ نفاذة ، يبدو أن تلك استعدادات لخطوبة مريم .. طرقت الباب وحتى الآن لا أعلم ماذا سأقول ، وماذا سأفعل !! تسارعت نبضات قلبي وجفَّ حلقي ما هذا الجنون !! لقد تخطيت البروفيسور!!
أخذتُ قرار أنْ أركضَ على الدرج الآن قبل أن يأتيَ أحد .. وما إن لففت ظهري لأهبطَ حتى سمعت صوت طفلة ربما تكون في

الثانية عشر مثلًا تقول:
- ماذا تريد ؟
التفتُّ وقلت بارتباكٍ:
- هل هذا بيت مريم أحمد ؟ هناك أشياء كانت قد طلبتها مني أونلاين على الفيس بوك لحفل خطوبتها .
قالت:
- أها ، انتظر سأبلغها .
أومأتُ مبتسمًا ودخلتْ هي لتخبرها بأمري .. لا أعلم كيف قفزت تلك الفكرة إلى ذهني ولكنِّي ممنونٌ جدًا لعقلي الذي اخترعها الآن .
جاءتْ مريم ترى ما الأمر فأصابها شعورٌ يجمع بين الدهشة والارتباك والخوف في آنٍ واحد ، وقالت خائفةً بصوتٍ منخفض بعدما نظرَتْ خلفها:
- ماذا هناك ؟ كيف تأتي إلى هنا؟
نظرتُ حولي أنا الآخر وقلتُ:
- حياتي من دونكِ يا مريم ستكون ضياع .. افعلي أيَّ شيءٍ من أجل حبنا .
قالت دامعةً وهي تسرع في حديثها:
- الخِطبة اليوم يا مالِك ، أنتَ لا تعلم ماذا فعلت لأرفضه ولكن حدثت أمور لا يوجد وقت لشرحها الآن ، لو عرفتها ستعذرني ..

أتمنى أن تقدِّر ذلك فقط .
نظرتْ خلفها والتفتتْ لي وهي تقول مرتبكةً:
- اذهبْ الآن أرجوك !
قلتُ بثبات:
- سأذهبُ يا مريم ولكنِّي سأذهب لعالَمٍ آخرٍ .
قالتْ بقلقٍ:
- ستذهب للبروفيسور؟
- أجلْ .. سأذهب له وأنتقل إلى العالَم الآخر ولنْ تريني ثانيةً .
قلتُ ذلك ، وتركتها وهبطتُ الدرج سريعًا .
سِرتُ في طريقي إلى بيتي .. وصلت إلى منطقتي ولم أجلسْ على المقهى الموجود على ناصية الشارع كما أفعل كل جمعة بعدما أعود من الصلاة ، تخطيته فنادى عليّ أحد أصدقائي في الحي لأجلسَ معه بصوتٍ مرتفع ، فبادلتُه أنا الآخر بصوتٍ مرتفع:
- أراك لاحقًا .
قلتُ ذلك وأنا أمام عقارنا ، وصعدت الدرج . طرقت الباب وانتظرتْ حتى فتح لي أخي الأصغر والوحيد مروان .. دخلتُ غرفتي أبحث عن بطاقة البروفيسور حتى وجدتها ، وكتبت رقمه لأهاتفه .. لم يردْ من المرة الأولى فحاولت ثانيةً حتى فتح المكالمة وقال:
- مرحباً !

قلتُ:
- مرحباً يا دكتور.. أنا مالِك شريف ، لقد فكرتُ على مَهلٍ .. إذا كنت ما زلتَ تحتاج إلى متطوعٍ فأنا موجود .
*****

سُرَّ البروفيسور بمكالمتي وأعطاني موعد الأسبوع القادم حتى أستعد لهذه المغامرة نفسيًا ، وأكون غير متردد واحد بالمائة ، فأصريت على أنْ يكون الموعد اليوم في المساء متأخراً على الأقل ، تعجَّب من إصراري ولكنَّه وافق بالنهاية على أنْ أذهبَ له العاشرة مساءً .
قررتُ أنَّني سأعاقبُ مريم إن كان كلامه حقيقي ، وإن لم يكن فلن أخسر شيء كما قال لي ،
إن كان حقيقة وأنا الآن أودُّ أنْ يكون كذلك .. ما المانع أن أخوض هذه المغامرة الفريدة من نوعها !
أجلْ ، أنا لستُ أولَ عاشقٍ رمته سهام القدر بمأزق ولكنِّي سأكون أولَ من خاض تجربة كهذه .
مرَّت الساعات وأنا في بيتي كأي يوم طبيعي .. تناولت الغداء والعشاء مع أبي وأمي ومروان ، حتى جاءت التاسعة مساءً واستعديت لمغادرة البيت والذهاب إلى البروفيسور.. تعمدت أنْ أتصرفَ طبيعيًا ولا أتصرفَ كموَدِع حتى لا يثنوني عن قراري ،

وحفظًا لماء الوجه إن كان البروفيسور يُهلوِس ، ولكنِّي قبَّلتُ يدّ أمي وجبينها ، ورأيت الاستغراب في عينيها ولكنِّي تجاهلته ونزلت من بيتي مسرعًا .
أخذت سيارة أجرة من أمام العقار حتى لا أجد أحد معارفي وأتورط في الوقوف معه ،
كنت قد كرهت هذا العالم قَاطبَةً حتى سائق السيارة الذي لا ذنبَ له سوى أنَّه يضطر بطبيعة عمله ليوصل أوغاد مثلي لأي مكان يريدونه .
ترجَّلت من السيارة ودلفت عقار البروفيسور، ركبت المصعد الكهربائي ، تخيلته سفينة فضائية تنقلني إلى عالمٍ آخر، كان شعور ممتع حتى نزلت ودققت جرس شقة البروفيسور الذي فتح لي وقال مبتسمًا:
- كنت متأكد أنَّك ستعود .
لوهلةٍ شعرت أنَّني بطلٌ في فيلم عربي قديم ، وعدت إلى زوجتي التي كنت قد تركتها هي وأبنائي بسبب نزوةٍ ما فابتسمتُ ببلاهة وقلت:
- كيف حالك يا دكتور ؟
- بخير، هيا ادخل !
قال ذلك ودخل ودخلتُ خلفه .. جلستُ على نفس المقعد الذي جلستُ عليه المرة السابقة وجلس هو جواري وقال وهو يطرق

على ركبتي:
- أنا سعيدٌ جدًا أنك فكرت بروية وأخذت هذا القرار.
قلتُ بداخلي اللعنة على سعيد لا تذكرني بهذا الاسم .. سألته:
- معذرةً يا دكتور هل تأخذ أيَّ عقاقيرٍ لمرض ما ؟
عقد حاجبيه قائلًا:
- لا آخذ أي شيء ، لماذا؟ أتظنّ أنَّني أهلوس ، ألم أخبرك أن تأتيني وأنت غير متردد وتكون مقتنع مائة بالمائة من كلامي وإن لم تقتنع فلا تأتِ !!
- فقط أسألك، الأمر ليس سهلا .
نهض البروفيسور وقال وهو يسير أمامي ببطءٍ ، ويشبك يديه في بعضهم وينظر للأرض وهو يذهب ويجيء:
- تخيل معي ، أنت الآن في الخمسين من العمر وشعرك يغزوه البياض باستحياء ، ظهرك مستقيم كما هو لم ينثنِ ولكنْ ربما يكون عندك خشونة في المفاصل ، مرَّتْ السنوات سريعًا ، أليس كذلك !
لم يعطني فرصة للرد وأكمل:
- أعرف .. أعرف أنت تتعجب الآن فـ بالأمس كنتَ في أوائل العشرينيات تتخبط في دروب الحياة ، تبحث عن ذاتك هل وجدتها ؟ هل نادمٌ على عمرك الذي مَرّ ولم تعشه بطريقة صحيحة كما يجب؟ هل فعلت إنجاز ما ، يترك لك أثر بعد موتك يقول أنَّك كنت يومًا هنا على هذه الأرض أم مررت وكأنك لم تكن !

لم يعطني أيضًا فرصة للرد واستأنف:
- حسنًا .. أيًا كانت الأجوبة فـ أودُّ أنْ أخبرك أنَّك لنْ تعيشَ أكثر مما عشته ، يا له من أمرٍ مؤسف .
قال الأخيرة وهو يومئ بأسف ، ومتأثرًا بالفعل ، ثم التفت لي وقال سريعًا بصوتٍ مرتفع بعض الشيء وكأنَّه وجد حلاً سحرياً:
- ولكنْ لا تبتئس ، سأمنحك شيئاً عظيماً ، سأُعيدك إلى أوائلِ العشرينيات كما كنتَ ثانيةً ،
ولكنْ عليك أنْ تفكِّر في الثلاثة أسئلة أعلاهم !
وأنا أفكر في الأسئلة ، لم أستطع تخيل شكلي ولكنِّي سألتُ نفسي «هل وجدت ذاتك؟»
جاوبتني لا ، حتى الآن لم أجدها وأنا في الخمسين من العمر، وما زلتُ لا أعلم ما هو دوري أو أهدافي في الحياة كانت مريم الهدف الوحيد الذي عرفته ، دخلت قسماً لا أحب بسبب قوانين لا أعلمها وتخرجت وأعمل موظف حكومي ، رأيتني مدرس كيمياء أعتمد في مرتبي على الدروس الخصوصية .
أغمضت عيني من هذا التخيل وانتقلت للسؤال الثاني .. «هل نادم على عمرك الذي مَر ولم تعشه بطريقة صحيحة كما يجب؟»
أووه نادمٌ جدًا ، فقد مرَّت الحياة روتينيةً خاليةً من أي نوع من المغامرة ، والحياة من دون المغامرة تغدو كئيبةً .
ليتني لم أخش المجازفة فالحياة سريعة جدًا ، بالأمس كنت أبلغ

من العمر ٢٢ عاماً والآن في الخمسين ولم أفعل شيئًا يذكر .
ثمَّ انتقلت للسؤال الثالث .. « هل فعلت إنجاز ما يترك لك أثر بعد موتك يقول انّك كنت يومًا هنا على هذه الأرض أم مررت وكأنك لم تكن ؟! »
لا، لم أفعل أيَّ شيءٍ .
الآن عرفت لمَ يسألني هذه الأسئلة ، يبدو أنَّه يحمسني للتجربة التي إنْ نجحتْ سيسطر التاريخ العلمي أسماءَنا بحروف ذهبية ، حمدًا لله أنَّني عُدت للعشرينيات ثانيةً لأغامر وأفعل إنجاز يجعل لحياتي معنى .
لا أعلم لماذا فرِحتُ وكأنِّي كنت في الخمسين من العمر وعدت للعشرينيات ثانيةً فنظرتُ له وقلتُ:
- لستُ مترددًا يا دكتور.. أنا جاهز الآن .
- حسنًا ، الآن نتفق .
قال البروفيسور ذلك واتجه إلى أحد الغرف .. جلب كراسة وقلم جاء وأعطاهم لي بعدما فتح صفحة بيضاء وجلس على مقعد أمامي وهو يقول:
- ستمضي لي هنا على تعهد أنَّك جئت بإرادتك ؛ سعيًا وراء شغفِ المعرفة وأنَّني لم أجبرك على شيءٍ ولستُ مسؤولاً عن شيء ، أنت موافق بإرادتك .
وافقتُ دون تردُّد وكأنِّي مُسيَّر بكل ذلك ، وضعت الكراسة على

الطاولة أمامي أستند عليها ومضيت تعهد له كما قال ، فقلت والقلم لايزال في يميني:

- سأكتبُ رسالتين وكل رسالة بها العنوان الذي ستعطيها له !

أومأ برأسه وهو يقول:

- حقك .

كتبت رسالة لأمي وأبي وأخي تتضمّن الآتي :

«هذا العالم سخيف ولم يعد به ما يَسُرُّ، سأتركه وأذهب إلى عالَم آخر لا تغضبوا مني ، أنا أحبكم ولكن لا أحب تلك الحياة ، قبلَ قليلٍ كنت في الخمسين من العمر وجدتها سخيفة جدًا ، تصوروا أنَّني وجدتني مدرس كيمياء يعتمد في مرتبه على الدروس الخصوصية ، لم تكن هذه أحلامي . ستكون المغامرة أفضل ، أيُّ عالمّ سيكون أفضل من هنا على كل حالٍ ، حتى عالم الأموات ، ولكنِّي سأعود.»

طويتُ الصفحة وفتحت صفحةً أخرى أكتبُ لمريم :

«عندما كنَّا معًا كنتُ تحت تأثير مُخدرِ حبِك ، فكنت لا أرى من هذا العالم إلَّا جانبه الحلو

وبعد أنْ تفرقْنا لمْ أستطع أنْ أرى منه إلَّا كل سيءٍ ، قبل قليل كنتُ في الخمسين من العمر، أتعلمين لم أجدنِ متزوج ، لأنَّني لم أستطع أنْ أرى أنَّني متزوج واحدة غيرك .. علمتُ أنَّني سأظلُّ بائساً هنا ، لذلك سأرحلُ إلى عالمٍ آخرٍ علَّني أجدكِ هناك ونرتبط

مرةً أخرى .
ملحوظة : إنْ وجدتُ سعيداً هناك سأقتله قتلةً غيرَ أخلاقيةٍ .»
طويتُ تلك الورقة أيضًا وأعطيته الثلاث ورقات بعدما كتبت العنوان على الرسالتين .

*****

شرحَ لي البروفيسور كيف سأعودُ إذا أردتُ ، فأمر العودة كان مُقلقًا .. لقد خرجنا عن حدود الفيزياء تمامًا والآن دخلنا في عالم الأرواح تقريبًا .
يقول أنَّني عندما أريد العودة سأظلّ أفكر فيه حتى أحلم به وعندها سينقلني إلى هنا أثناء الحلم ،
ولو لم أحلم به سأظلّ هناك .. أمرٌ مريبٌ ولكنِّي لم أعبأْ به ، فقد أخذت القرار والفضول المعرفي الآن هو من يتحكم بي .
دلَّني البروفيسور على السرير الذي سأنام عليه ، وجلب كرسي جواره ليجلسَ عليه وقال لي:
- هيا ، نَمّ !
ابتسمتُ بسخريةٍ وأنا أقول:
- كنتُ لا أنام عندما يكون عندي رحلة مدرسية في الصباح ، الأمر ليس بهذه السهولة .
أومأ وهو يقول:

- صحيح لقد اشتريت حبوب منوم خصوصًا لهذا الموضوع ، انتظرْ !

قال ذلك وخرج من الغرفة جلبه وكوب مياه وأعطاني إياهم .. أخذت قرص المنوم واستلقيت على السرير .

جلس البروفيسور وقال:

- الآن سأخبرك بما ستفعله حتى يكون آخر شيءٍ في عقلك ، اعطني هاتفك !

أخذت هاتفي من جيب بنطالي وأعطيته له ، فقال:

- سأضع به «memory card» فارغ جديد لتُصوِّرَ كل شيءٍ ، ستكون في واقع وليس حلم ، صوِّر وسجِّل كلَ شيءٍ يستحق أنْ نراه ، فهذه التجربة إنْ نجحت سأرسل إلى هناك كثيرين .

أومأت برأسي وبدَّلَ هو الشرائح وقال:

- لا تقلق سأخبر أمك وأبوك إن طوّلت هناك .

أعطاني الهاتف وكان مفعول المنوم قد تفاعل معي فقلت بصوتٍ ناعس:

- ولكن حتى الآن لا أعلم كيف ستنقلني !

- سأرفعك من فوق السرير وأُلقيك بآخر ذراعي في الهواء .

تعجبتُ وقلتُ سريعًا قبل أنْ أنامَ:

- بآخرِ ذراعك ؟! ماذا لو لم يكن حقيقة سأُصابُ بعاهةٍ مستديمةٍ .. لم أستطع تكملة الاعتراض بأنْ أصرخَ وأنا أقولُ « لااااا « وكنت

قد غرقت في النوم .

*****

وجدتُ نفسي في جنازةٍ .. هكذا كان أخر شيء رأيتُه أثناءَ نومي في الحلم غريب الأطوار .
اتسعت عينيّ دهشةً ، فقد تحول حلمي لواقع ، في عالم آخر كما أخبرني البروفيسور
أصبحت في صدمة عاتية ، كنت أظن أنَّه يهذي ويهرطق ، فكيف أنتقل إلى عالمٍ آخرٍ عن طريق حلم .. إنَّه لشيءٌ غريبٌ ، بعيد كل البعد عن الخيال ، لم يستطع عقلي تصديقه ، أجل كنت متخذَ الأمرِ على مَحْمِل الجدية ، ولكنْ لم يكن عندي يقين واحد بالمائة أنَّ ذلك يُمكن أنْ يكونَ حقيقةً !
كنُت أريد الهروب حتى لو كان شيئاً زائفاً ، لا أعلمُ ربَّما مازلتُ أحلم ، ولكنِّي أشعرُ بكلِ شيءٍ وأتحكمُ بكل شيءٍ !
ظللّت التفتُ حولي ، وأدركتُ الآن أنَّني في عالَمٍ آخر يشبه عالَمنا ، ولكنْ ليس تماماً ، كأنَّها حياةٌ بدائيةٌ بعضَ الشيءِ .. بيوتٌ صغيرةٌ مصنوعةٌ من الطوب الأحمر وغيرُ ملونةٍ ولا مُزيَّنةٍ وغيرُ ملتصقةٍ ببعضها ، بها بابٌ خشبي ونافذة واحدة ، وكلُ بيت يحيطه فناء ، والفناء يحيطه سور من الأسلاك التي تُظهر ما خلفها ، وبها رقم يميزها ليعرف كلاً بيته ، والسيارات معظمها ذات مقعدٍ واحدٍ

فقط للسائق .
وملابس الناس من حولي كانت غريبة جدًا كملابس الناس في العصر الروماني ، يرتدي الرجال عباءاتٍ طويلة ، وقطعة من القماش ملتفة حول الخَصْرِ وملقية على الكتف .
والنساء ترتدي أثواباً طويلة بأكمام قصيرة وحزام على الخصر .
كنت لا أعلم كمْ الساعة ولكنَّ الوقتَ يبدو أنَّه بين الرابعة والخامسة مساءً .
لأنَّ أشعة الشمس كانت منعكسة برقة على أرضية الشوارع التي كانت مبلطة كشوارع مصر القديمة ، كنت مستمتع بكل شيءٍ أراه ، خليط من التطور والعصور القديمة ، فأخرجت هاتفي وظللّت ألتقط الصور حتى لمحني شخصٌ من السائرين حولي في الجنازة التي نسيتها ، فسألته كي أداري خجلي:
- جنازة من تلك ؟
لم يبدِ الرجل أيَّ استغرابٍ لملابسي الغريبة عنهم ، فكنتُ أرتدي سروال من الجينز وسترة قطنية وقميص مفتوح ، فأجابني:
- جنازة أم رامي .
قلتُ باندهاش:
- أم رامي ! أسماؤكم لم تكن غريبة عن عالَمنا .
أشار الرجل أمامه وقال:
- ها هو ذا رامي ولدها .

فاتجهتُ نحوه كنوع من المروءة لأواسيه وربتّتُ على كتفه قائلاً:
- لا تحزنْ .. كلنا سنموت .
قال رامي بدون أيّ تعبير:
- كيف لا أحزن !
اعتقدتُ أنَّه مصدومًا في موت والدته ، فقلتُ:
- رحمها الله !
- الله !! مَنْ الله؟
ضربتُ كفي على الآخر، وقلتُ:
- لا إله إلا الله !
لا أعلم هل هو ملحدٌ أم مفجوعٌ في موت أمه أم ماذا ؟!
فسألتُه بتوجسٍ:
- أءنت ملحدٌ؟
سؤال غبي في موقف كهذا لو لكمني الآن في وجهي لتقبّلت اللكمة بصدرٍ رحب
ولكنَّه قال:
- ملحدٌ بماذا ؟
- أليست مَنْ توفتْ هي أمك ، وتلك جنازتها ؟
- أجل .
- لذلك أنا أعزيك .
- توفيت أمي ، ما الأمر في ذلك .

شعرت بالريبة فتركته وغادرت الجنازة كلها .
كنت أتطلع لكل شيء وأنا أسير وألتقط الصور .. وقت الغروب امتلأت السماء بالنجوم والكواكب في وضح النهار، كان المنظر ساحر وشيءٌ يثير العجب ، فقد رأيتُ جمالًا لم أعهده من قبل .
وبعد وقتٍ من التأمل الممتع ، رفعت هاتفي أمامي ألتقط بعض الصور فاصطدمتُ برجلٍ فقلتُ له :
- آسف لم أكن أقصد !
زاحني الرجل من أمامه وهو يقول:
- لقد أخرتني بعض الثواني على عملي ، وردي عليك أخرني أكثر .. يا لكَ من غبي ، تُعيق طريق الناس .
يبدو أنَّه رجل مجنون متأثر لتأخره بعض الثواني ؛ لذلك لم أُرِدْ أنْ أدخل في جدال معه فقلتُ:
- سامحك الله !
التفتَ لي قائلًا:
- تقول أشياء لا معنىً لها حتى تأخرني أكثر، يبدو أنَّك من الفاسدين ، سآخذك للشرطة حتى تتأدَّب وآخذ منهم إفادةً للعمل تقول أنَّني تأخرتُ بسبب فاسدٍ .
انتهى من جملته وركض نحوي ، فوجدتُّني أركض وهو يركض خلفي .
يراني فاسداً لأنَّني عطَّلته عن عمله بعض الثواني .. ما هذا

الجنون !! يبدو أن البروفيسور سقط من هذا العالم في عالمنا فكلهم مجانين !!
حالَفني الحظ عندما وجدتُ سوقاً مليئاً بالناس ، فتوغلت بينهم واستطعت الهرب من الرجل ،
وبدل من أنْ يتأخر عشر ثواني على عمله ، تأخر عشرَ دقائق .. يا له من غبي .. كم أنا سعيد لذلك الآن .
كان الناس واقفين ، مقيدين من أرجلهم ، ووجدتُ أفراداً يرتدون عباءاتٍ بلون بُني أتوا وقيدوا أشخاصًا آخرين ، تجوّلتُ ببصري في المكان حتى رأيتُ لافتةً مدوناً عليها «عقاب الفاسدين» واتضح أنَّ الذي دخلته ليس سوقًا بل سجن ووجدتُ الرجل الغبي الذي اصطدمت به يبحث عني فركضت سريعًا قبل أنْ يراني ، وبعد أنْ ابتعدتُ عن هذا المكان بمساحة كبيرة أبطأتُ خطواتي وأنا ألهث ، فوجدتُ مجموعة من الفتيات جالسين في بستان صغير بالشارع تحت لافتةٍ مدون عليها «فتيات للزواج» ، وكل بضعة دقائق أجدُ رجلاً يأتي يأخذ واحدة ويغادر.
أثار استغرابي هذا الأمر فجلستُ على العشبِ موازٍ لهم ؛ لآخذ قسطًا من الراحة ، وأشاهد ماذا يحدث !
حتى بقيت فتاتين فنهضتا لتغادرا ، فاتَّجهت نحوَهما سريعًا وسألتُ واحدةً منهما :
- لماذا لم يأتِ رجالا ليأخذوكما ؟

غادرتْ واحدة وأجابتني الأخرى:
- فات الوقت ، إنْ كنت تريد الزواج ، تعالَ مبكرًا في الغد .
قلتُ:
- كان بودِي ذلك ولكنَّ الفتاة التي أحبها في عالَمٍ آخرٍ .
- فتاة تحبها !! كيف؟
- أحبها كما تحبي حبيبك الذي تأخَّر أم كان زواج «صالونات» هذا؟ أم تسمونه أنتم زواج حدائق ههه .
- ماذا تقول ؟
- لا، لا تقنعيني أنَّكُنَّ تتزوَّجن هنا دون حب .
- ما هذه الكلمة التي تشتق منها كلمات كثيرة «حب وأحبها وتحبي وحبيبك»
لم أخلُ من الاستغراب لحظة واحدة منذ أفقت من الحلم وأصبحت هنا ، فقلتُ:
- كيف يتمّ الزواج هنا ؟
أجابتْ الفتاة:
- هذا المكان مخصَّص للزواج ، بعد أنْ تُتِمّ الفتاة العشرين عامًا ، تأتي إلى هنا في اليوم التالي الساعة الخامسة مساءً ، ويأتي الرجال الذين في عمر الثلاثين عامًا ويأخذ كلٌّ منهم أيَّ فتاة ويذهب بها إلى بيته الجديد .
أعتقد أنَّه بدتْ عليَّ علامات الاندهاش كثيرًا ، فقلتُ:

- ألم تتزوَّجن على سنة الله ورسوله إن كنتم مسلمون ، أو تتم الطقوس الخاصة بكم إن كنتم على دين المسيح أو موسى .
- يا هذا ! أنت تقول كلام لا أفهمه .
قالتْ ذلك وتركتني وغادرتْ وهي تغمغم بكلام استطعتُ سماعه:
- مَنْ الله ورسوله ومن المسيح وموسى وما معنى مسلمون ، ماذا يقول هذا الرجل ؟!
علمتُ الآن .. يبدو أنَّه لا يوجد عندهم مشاعر ، ولا دين فلم يستغربونني رغم أنَّني غريب كليًا عنهم ، ولم يبدُ عليهم أيُّ شعور ، ولم يعرفوا الله ورسله .. كيف يعيشون في تلك الحياة ؟ يبدو أنه عالم مليء بالريبة !!

*****

كان الليلُ قد حلَّ وشعرتُ بالجوع والإرهاق ، وواجهتني معضلةٌ عظيمة لم أحسبْ لها حساب أنا والبروفيسور، فقد جئتُ غريبًا لا أملك بيتًا يأويني .. لا أعلم لماذا لم أحلم أنَّني في بيتي مثلًا .. أشاهد فيلمًا أنا ومريم ، أقلُّها كنت سأجد لي مأوى .
ولا أعلم ما علاقتي بأم رامي حتى أحضر جنازتها .. أهلكك الله يا أمَّ رامي أنتِ ورامي، ماذا عسايّ أنْ أفعلَ الآن .
جلستُ على الرصيف المصنوع من الأسمنت أفكرُ ماذا سأفعل في عالم كهذا يختلف كليًا عن عالمنا !

حتى إهدار الوقت هنا جريمة يعاقب عليها القانون وتسمى جريمة فساد ، هل أكتفي بهذا القدر من المغامرة وأفكر في البروفيسور حتى أحلم به وينتشلني من هنا ، أم أظلّ أواصل اكتشافاتي .

انغمستُ في أفكاري ..

أظنُّ أنَّ الأفكار هي من كانت تنساق إليَّ ، فقد تذكَّرت قول البروفيسور :

«هل فعلت إنجاز ما يترك لك أثر بعد موتك يقول انك كنت يومًا هنا على هذه الأرض أم مررت وكأنَّك لم تكن؟!»

وتذكرت ياسين وهو يمازح مصطفى بقوله : «أعتقد أن رنا لا يوجد عندها كيمياء المشاعر أَجرِ لها تعديل وراثي يا مصطفى واعطْها تلك الصفة» .

ومن هنا جاءتني فكرة عظيمة ، لِمَ أمرّ وكأنِّي لم أكن .. سأعمل على تعديل الصفات الوراثية لهؤلاء الناس وأعطيهم صفة الشعور عن طريق تقنية كريسبر كاس٩.

الآن وضحت لي مقولة أمي : « كل شيءٍ لم يحدث عبثًا وإنما يحدث لحكمة ما ، لا تدركها عقولنا الآن ولكنَّنا سنعرفها فيما بعد «

فقد عرفتُ الحكمة التي وراء دخولي قسم الكيمياء الحيوي ، لكي أجري تعديلات وراثية لهؤلاء الناس .

ولكنْ مَنْ سيساعدني والجميع هنا لا يسير سوى بالمنطق .. لا أحد يرى سوى مصلحته فقط ،
ولا يوجد عندهم شعور من الأساس ليتحمسوا لِما أقول .. رفعت رأسي إلى السماء وأنا أقول «يا الله ساعدني» !
قلتُ ذلك وحوطت ساقيّ بذراعيّ ووضعتُ رأسي فوقهم ورحتُ في النوم .

*****

لم أدرِ بنفسي غير في اليوم التالي ورجل يوقظني وهو يقول:
- يا هذا ما الذي يجعلك تنام حتى الآن ، ولماذا تنام هنا ؟
قلتُ بصوتٍ ناعسٍ وأنا أفرك عينيّ:
- ولماذا يجب أنْ أستيقظَ الآن ؟
قال الرجل بصوتٍ مرتفع:
- أنتَ من الظالمين .
قلتُ مندهشًا:
- مَنْ هم الظالمين ؟
- من يستيقظون متأخرًا ويُهلكون صحتهم .
أمسكَني من تلابيبي وهو يكّمل:
- يبدو أنَّك منهم ، سآخذك لمكان عقابك .
نظرتُ له فوجدتُ عباءَته بُنية والشرطة التي كانت تعاقب

الفاسدين كانت ترتدي هذا اللون ، هو شرطي إذن ، فأفلتُ بنفسي من بين يديه ، وقلتُ وأنا أهندم ملابسي:

- أنت شرطي أليس كذلك ؟

- أجل .

قلتُ في أذنِه بصوتٍ منخفضٍ:

- أنا من عالَم آخر يريد التواصل معكم .

- ما هذا الهراء ، هيَّا انطلقْ معي لتأخذَ عقابك !

- صدقني والله أنا لستُ من هذا العالَم !

أمسكتُ أطراف قميصي وأنا أقول:

- ألَا ترى غرابة ملابسي !

نظر إليَّ نظرةً خاليةً من المعاني قائلاً:

- لا تُضيِّع وقتي .. إنْ لم تسِرْ أمامي الآن ستأخذ عقابين ، عقاب الظلم ، وعقاب الفساد .

- حسنًا ، أيوجدُ في مكان العقاب أحد المسؤولين أقول له ما لم تصدقه أنت ؟

- وما الذي يجعلني أصدقك ؟

- لأنَّه لا بدَّ أنْ تصدقني ، ما مصلحتي في الكذب !

- بالتأكيد لتفلتَ من العقاب .

- معك حق .. تفكيرك منطقي ، فدعني أعطيك حجج وبراهين تدل على صدقي بالمنطق أيضًا . أمسكني من تلابيبي مرة أخرى

، وقال:
- ليس لديَّ وقت لهذا الكلام الفارغ ، هيَّا أمامي !
لم يكن أمامي سوى أن، أهربَ منه كما هربت من الرجل الآخر أمس ، أفلتُّ بنفسي وركضت وركض هو خلفي .. ظل ورائي ولكنِّي استطعت المناص منه .. شعرت بجوع يعتصرني
؛ فسرتُ أبحثُ عن مطعم حتى وجدت بناء مستطيل غير مزين ، بالحجارة فقط كما البيوت الصغيرة ولكنِّي شممت منه رائحة طعام .. اتجهت نحوه وكان هناك لافتتان ، واحدة ملتصقة في الجدار مدون عليها «مطعم» ، والأخرى معلقة بحبل مدون عليها الوجبة الأولى .. جئت عند بابه ، طللّتُ برأسي فوجدت جمعاً من الناس يجلسون متربِّعون على الأرض أمام طاولة ذات أرجل قصيرة بطول البناء يأكلون .
أطفال ونساء ورجال في أعمار متفاوتة فجلست بينهم .. لم يلقِ لي أحدٌ بالًا .. كان الطعام عبارة عن أرز لا طعم له لم يكن به توابل ، وبعض الخضروات ولكن الجوع لا يفرُق معه نكهة .
أكلتُ حتى شبعتُ ، ورأيت الناس تأكل وتسير دون أنْ تدفعَ مالاً.. سرَّني هذا كثيراً ولكنْ أردتُ أنْ أعرفَ كيف يتعاملون ، فانتظرتُ مكاني حتى أتى رجالًا ينظفون المكان ويلملموا بقايا الطعام .. يرتدون عباءات باللون الأزرق فسألتُ أحدهم:
- أرى الناس تأكل وتسير دون أن تدفع مالاً ، فكيف تتعاملون

هنا ؟ بالمقايضة أم الفيزا أم ماذا ؟
لم يفهم شيء فقلتُ:
- ما مقابل الطعام الذي تناولته ؟
- لا شيء .
قال ذلك وتركني وأكمل ما يفعله ، فاتجهتُ نحوه وقلتُ:
- هل هذا الطعام للفقراء والمساكين ؟
- لجميع الناس .
اتجه نحو اللافتة المعلقة ونزعها ووضعها بالداخل ، فقلتُ:
- ومن يصرف لك مرتبك؟
- ولماذا آأخذ مرتب .
قال ذلك وكان قد انتهى من عمله فتركني وغادر، مرَّ اليوم ومررت بأحداثٍ عرفتُ منها أنَّه لا يوجد هنا تعامل بالمال أو المقايضة ، لا تعامل بشيء عمومًا .. بعدما ينتهوا من الدراسة
يأتي لهم عمل يناسب قدراتهم ، وكلٌ يعمل في مكانه ولا يأخذ شيئاً ولكنَّه إذا أراد أنْ يأكلَ ، يجدُ طعامه ، وإذا أراد أيَّ شيءٍ يجده ..
الجميع يكمِّل بعضه وكلٍ يأخذُ ما يكفيه فقط ، فلا أحد يملُك سيارتين أو عقارين أو ما يزيد عن احتياجاته .
*****

في اليوم التالي وأنا نائم ، جاء رجل يوقظني كالأمس ، لم أتكلمْ ركضت سريعًا وركض خلفي حتى أمسكني ، وأخرج من جيب عباءَته قيدٌ فولاذيٌ قيدني من رسغيَّا ، وقال:

- هيَّا أمامي .

عبرنا الشارع للجهة الأخرى ، ووقفنا عند الطريق المخصص لسيارات الشرطة حتى مرَّت سيارة الشرطة التي تختلف عن السيارات الفردية ، كانت كالحافلات في عالمنا .

أوقفها الضابط وصعدنا بها ، جلستُ مع خمسة معاقبين كل معاقب كان بصحبة ضابطِه وجلس ضابطي بجواري ، وبعد دقائق من السير قال السائق:

- ما التُّهم ؟

قال ضابط:

- معيَ فاسدٌ .

وثاني قال:

- معيَ نصابٌ .

والثالث قال:

معيَ نصابٌ أيضًا .

والرابع قال:

- معيَ ظالمٌ .

فقال ضابطي والآخر بصوت واحد:

- معيَ ظالمٌ .

سار السائق حتى وقف ، وقال:

- الفاسدين هنا .

نزل الفاسد وضابطه ، وأكمل السائق سيره حتى توقف ، وقال:

- الظالمين هنا .

نزلتُ والأخرين في أرض واسعة على جانب الطريق خالية من البناء والزرع ، بها ثلاثة معاقبين مقيدين من أيديهم وأرجلهم بشيءٍ معدنيٍ مثبت في الأرض ، فقيدونا مثلهم وتركونا .

نظرتُ إلى قيدي المثبت في الأرض ، ثم تذكَّرت أنَّني حتى الآن أقول الأرض ولا أعلم ما اسم هذا الكوكب ، فقلتُ لمن بجواري:

- ما اسم هذا الكوكب ؟

كنَّا جميعًا ناظرين أمامنا ، فقال دون أن ينظر لي:

- كوكب الأرض .

- ما هذا الكذب ، هل هذا استنساخ لعالَمِنا ؟

لم يجبْني ثانيةً ، فقلتُ:

- سنظلُّ هنا إلى متى إذن ؟

أجابني وهو مازال لا ينظرُ لي:

- ثلاثةُ أيامٍ دون طعامٍ أو شرابٍ .

قلتُ بغضبٍ:

- وما دخْل الطعام والشراب بالعقاب ؟

- سيهزل جسدك قليلًا ، وعندما يطلق سراحنا وتأكل سيستعيد قوته ثانيةً وانتهى الأمر .

- ولكنِّي جائعٌ .

نظر لي وقال لينهي الحديث:

- هل ثرثرتك هذه لها فائدة ؟

- لا .

- إذنْ اصمت ووفِّر طاقتك وطاقتي !

- حسنًا ، ولكنْ لديَّ سؤالٌ أخير !

صَمَتَ فيما معناه أنْ أسأله ، فقلتُ:

- ما اسمك ؟

- أدولف .

قلتُ مازحًا بسخافةٍ:

- أدولف هتلر هاهاها ...

نظرَ لي وقال:

- كيف عرفتَ اسمي ؟

أمعنتُ فيه النظر فأصابَني الذهول ، شارب صغير، عينان ذئبيَّتان ، أنف مستقيم ، شعر ناعم !! إنَّه هو، إنَّه هتلر ولكنَّه مازال صغيرًا ويتحدث العربية !

رباه إنَّني فَزِعْ ، فَزِعٌ جدًا .. يبدو أنَّه استنساخ لعالَمِنا مع وجود بعض الفوارق ، فقال هتلر:

- كيف عرفت اسمي هل سمعتهم يتفقون على التخلص مني ؟
مازلتُ مذهولاً ، فقلتُ ساخرًا:
- هل خائفٌ أنْ يقتلوك وأنتَ قتلتَ مئات الآلاف في عالَمِنا .
قال بلا مبالاةٍ:
- حسنًا.
لعن الله انعدام الشعور في الإنسان ، لم يكن عنده فضول لمعرفة أيِّ شيء فقلتُ بتعجبٍ:
- أنتَ يا رجل ! أخبرُك أنَّك قتلتَ مئات الآلاف في عالم آخر، ألمْ يثير فضولك شيءٌ ، وهناك من يقولون أنَّهم ستةُ ملايينَ إنسانا !
- يا هذا أنت تقول أشياء منافية للمنطق ، وليس لها معنى .. أنت ذاتك أراك بلا معنىً ، ما هذا اللباس الذي ترتديه ، ولماذا أقتل أصلا !
أصابتني الدهشة ، وقلتُ مبتسمًا:
- أخيرًا رأيتُ مَنْ استغرب ملابسي ، يبدو أنَّك عندك قليلٌ من الشعور وستساعدني ، ألَا تريدَ أنْ أقصَّ لك قصةَ قتلِك لمئات الآلاف ؟!
- ألم يكونوا ستة ملايين قبل قليل ، أين الحقيقة إذن ؟!
- انظر.. لا يوجد حقيقة مطلقة سوى الموت ، حتى الموت بعده حياة أخرى .. يبدو أنَّه لا شيءَ حقيقي على الإطلاق .
- موت بعده حياة أخرى ؟! أنت غير طبيعي ، أظنُّك سقطتَ من

السماء .
انتبهتُ أنَّني تطرقتُ لموضوعٍ آخر فقلتُ:
- هناك من يقولون أنَّك قتلتَ مائةً وعشرين ألفاً ، وهناك من يقولون ستة ملايين ، وكلٌ له مصلحة في ذلك ، المهم أنَّه بين هذا وذاك لا يوجد اختلاف على أنَّك قاتل .
- لا أريد أن تقصَّ عليَّ شيئاً ، اصمتْ الآن !
تذكَّرتُ أنَّني معي على الهاتف صورة له أو صورتين تقريبًا ، ومعي أيضًا اقتباسات من كتابه « كفاحي» فقلتُ:
- سأريكَ الدليل عندما يُفَكُّ وثاقنا .
- وما هو الدليل ؟
- صورة لك بزيٍّ آخر ، واقتباسات من كتابك الذي ألفتَّه وأنت في السجن .
- ماذا تريد يعني ؟
- أريدُك أنْ تكفِّر عن ذنوبك .

*****

مرَّ يومٌ وكنتُ قد أوشكتُ على الهلاك واستبد بيَ العطش .. ما هذا الغباء لأنِّي أظلمُ نفسي ! يعاقبونني بظلم أشدُّ لنفسي ، ظللّت أصرخُ وأنا أقولُ « أريد ماءً «
كلَّ من حولي كانوا كما هم ، خارت قواهم قليلًا ولكنَّهم لا

يشعرون بالجوع ولا بالعطش ولا بشيءٍ عمومًا .
جاء ضباطٌ يضعون ظالمين آخرين في القيد مثلَنا ، وظللّتُ أترجّاهم وأتضرّع إليهم أنْ يفكُّوا قيدي ويجلبوا لي ماءًا وطعاماً ، ولكنَّهم لا يشعرون بالشفقة أو الرحمة أو أيِّ شيءٍ كما الآخرين .
ما أقبحَ الإنسانُ حين لا يشعر في مواقف كهذه .. أحيانًا الشعور يكون نعمة وأحياناً أخرى يكون نقمة .
خارت قوايّ وغبتُ عن الوعي .. لم أدرِ بنفسي غير وأنا مستلقٍ موضعي دون قيود ، ألهثُ وأنا أكرِّر « أريد ماءاً « فقال أحد الضباط الواقفين:
- إنَّه حيّ !
وقال آخر:
- يا له من مخادع !
يبدو أنَّهم ظنوني تُوفِّيت ، لم أقدرْ على تبرير شيءٍ وكرَّرتُ جملتي « أريد ماءاً « فقال ضابط وهو يكبلني ثانيةً:
- بعد إتمامك لفترة عقوبتك .
لعنك الله أيها البروفيسور سأموتُ هنا في هذا العالم الغبي عديم الشعور، تحاملتُ على إعيائي وقلت صارخًا:
- لا .. سأموتُ إنْ لم أشربْ الآن .
قال الضابط وهو مازال يكبِّلني:
- مُتّْ .. أنتَ من الظالمين ، يعني لا تفيد الكوكب بشيءٍ بل

تستنزفه .
فقال ضابط آخر:
- ولكنَّه يفيد الكوكب في أشياء أخرى .
وأمر آخر أن يحضرَ ليَ الماء .
*****

مرَّ الثلاثة أيام كأنَّهم ثلاث سنوات ، كان العقاب سيئًا جدًا بالنسبة لإنسان يشعر .. فُكَّ وثاقنا وأتونا بالطعام والشراب ، تناولناهم وحين انتهينا سار هتلر في طريقه وكأنَّنا لم نتحدث سوياً ، فركضتُ وراءه وناديته:
- هتلر !
توقَّف والتفتَ ليَ قائلًا:
- ماذا تريد يا رجل ؟
- انتظرْ ! لأريك صورك وبعض كتاباتك .
أخرجتُ هاتفي من جيب بنطالي ، وتذكرتُ أنَّ البروفيسور بدَّل بطاقات الذاكرة فقلتُ بضجر:
- يا لحظيَّ التَّعِسْ فقد بدّل البروفيسور بطاقات الذاكرة .
لم يفهم هتلر شيئاً ، فقال:
- لا تتَّبعني .. اتركني وشأني !
قال ذلك ومضى فقلتُ بصوتٍ مرتفع بتفاصيل دقيقة لربما يتذكَّر

ذلك:
- ولكنِّي تذكَّرتُ يومَ انتحارك ، يوم قتلتَ نفسك في الثلاثين من إبريل عام ١٩٤٥بجانب عشيقتك إيفا برون ، بعدما أصبحتْ زوجتك وانتهتْ الحرب العالمية الثانية .
توقَّف هتلر ، وبعد صمتٍ قليلٍ التفت لي قائلًا:
- يُخيَّل لي أنِّي رأيتُ شيئاً كهذا في أحلامي .
يبدو أنَّ الأحلام عوالمٌ أخرى كما قال البروفيسور ، فقلت مسرورًا:
- الآن صدقتني ، إذن ستساعدني أليس كذلك ؟
- أنا لا أفهم شيئًا مما تقول .. لذلك اتركني !
قال ذلك ومضى في طريقه ، ولكنَّ رؤيتي له وحديثي معه كانا لهم فائدةٌ عظيمةٌ ، فقد علمتُ أنَّ هذا العالَم استنساخ لعالَمنا مع وجود بعض الفوارق .
وبما أنَّه ليس عندهم شعور ولا أحد سيساعدني هنا ، قرَّرتُ أنْ أبحثَ عن أصدقائي مصطفى وياسين حتى أجدهم ، وأذكِّرهم ببعض المواقف بيننا التي سيكونون قد رأوها على هيئة حلم .. ربما يصدقوني ويساعدونني وأبحث عن مريم أيضاً ؛ لتهوِّنَ عليَّ الطريق .

*****

بعد عدة أيام من البحث وطرق البحث المختلفة اهتديتُ إلى

فكرة بديهية كانتْ لا بدَّ أنْ تكونَ هي أول فكرة للبحث .. قرَّرتُ أنْ أذهب إلى شيءٍ يشبه المصالح الحكومية عندنا به بيانات الناس ، وأطلب بيان معلومات عن مصطفى أحمد مبارك وياسين حسين حسن ومريم أحمد السيد .

ظللُت أبحث عن شيء كهذا حتى علمت أنَّ هناك مركز سجلات تابع للشرطة .. اتجهت إليه وطلبت بيان المعلومات .. تلك الأعمال هنا تتم بسهولة دون أن يسألوك لماذا وما مصلحتك من ذلك ؛ لأنَّهم خاليين من العواطف فلا يوجد عندهم شعورَ بغضٍ أو كرهٍ ، أو أيِّ شيءٍ يحمل للآخر ضررًا .

يعيشون في سلامٍ دائم ولكنَّهم لا يشعرون به ، لا يوجد هنا عنصرية أو نزاعات أو حروب أو أي شيء .. كلٌّ يعمل لمصلحة نفسه فقط وليس له أيُّ أغراض أخرى .. كمّ نفتقد هذا في عالمنا ولكنِّي لا أعلمُ هل ذلك جيد ، أم أنَّ الحياة بدون اختبارات ستكون مملة ، فمن دون الحروب كنَّا لنْ نعرف معنى السلام ، ولا نشعر بقيمته وكذلك نواقضُ كلِ شيءٍ سيءٍ .

أدخلني الموظف عند سجلات البيانات ، وظللّتُ أربعة أيام ، كل يوم آتي أبحث في آلاف الأسماء وآلاف الصور بجوارهم في قوائم تحتوي على الأسماء التي أريدها فقط « مصطفى أحمد مبارك ، وياسين حسين حسن ، ومريم أحمد السيد « .

ولم أجدْ أيًا منهم حتى شعرتُ بالإحباط وخيبة الأمل وفكرتُ في

أمر العودة .
قضيتُ حتى الآن خمسة عشر يوماً في هذا العالم وأنا أشعر بوحدة ووحشة قاسية ، لستُ في بلد أخرى غير بلدي حتى أحاول التأقلم ولكنِّي في عالمٍ آخرٍ .
أعلم أنَّني لنْ أستطع التأقلم على تلك الحياة أبدًا .
خمسة عشر يوماً أعيشُ كالمجرمين وأتخفَّى من الشرطة ؛ كي لا يأخذونني ثانيةً بتهمة الظلم أو أيِّ تهمة أخرى من تهمهم الغريبة ، وأسترقُ النوم في أماكن متخفية ولكنِّي اتقيت شرَّ الفساد بألَّا أحدِّثَ أحداً .
كما أنَّه قد فرغت بطارية هاتفي بعد خمسةِ أيامٍ من قدومي إلى هنا ، فأصبح لم يكن بمقدوري أنْ أصوِّر أيَّ شيءٍ .
شعرتُ أنَّ وجودي في هذا العالم الآن كعدمه ، حتى أنَّني لم أجد شخصًا واحداً على الأقل ليساعدني .. فالعودة إلى عالَمي هو الحل الأسلم .
اكتشفتُ أنَّني لم أعاقب مريم ولكنِّي أعاقب نفسي .
مشيتُ كما تقودني قدميَّ أبحث عن مكان جديد للنوم ، حتى نمتُ فوق عُشبٍ خلف بيتٍ صغير .

*****

رأيتُ في منامي أنَّني في قاعة كبيرة وأمامي صحافيون كثيرون ،

يحاولون أنْ يأخذوا مني أيَّ كلمةٍ في هذا السبق الكبير، وإضاءة آلات التصوير تملأ المكان .

استيقظتُ وعلى وجهي ابتسامة عريضة من هذا الحلم الجميل .. قلتُ بالتأكيد هذه إشارة لأكمل رسالتي في هذا العالم .

اتجهتُ إلى مركز السجلات وواصلت البحث في الأسماء .. عشرةَ أيامٍ دون مللٍ ، لم أجدْ مريم ولكنِّي وجدتُ ياسين كان عمره ٢٨ عامٍ ولكِنْ شكله لم يتغيَّرْ كثيرًا .

عندما رأيتُه عرفته على الفور، يعمل في شرطة الجامعة التي مقرها في بلدة لم تكن بعيدة اسمها وادي القمر، لا أعرف وادي القمر هذه القرية التابعة لمصر أم الأردن أم للنهر الذي في البرازيل أم لا علاقة لهذه البلاد بهذا العالم ، وبما أنَّهم ليس عندهم رسل فلم يكن عندهم تقويم هجري أو ميلادي فلم أعلم في أيِّ عامٍ أنا ، كانتْ حساباتهم للأعوام بتقويم لا أعلمه ، ولكن لا يهم ذلك الآن .

ظللْتُ أفكر كيف أذهب له وأنا لا أملك سيارة ، فالطعام آأكله مع الجميع ثلاث وجبات في اليوم ، والنوم خلف العقارات يتم بسهولة ، حتى الآن لا أعلم كيف يحصلون على البيت والسيارة ، فكيف أستقلُّ سيارة الآن ؛ لأذهب له ؟

لم يكن أمامي سوى أنْ أتعلَّق في سيارة .. كان أمراً مريباً ، ولكنْ السائقين والمارة الذين كانوا يروني ، كانوا لا يرتابون ولا يعلقون ،

حتى رآني ضابط وصاح بصوتٍ مرتفعٍ:
- أيُّها النصاب .. اهبطْ الآن .
ظلَّ يركض جوار السيارة وهو يصيح « اهبطْ الآن « فتحاشيت النظر له ، حتى أصابه الإجهاد الذي لا يشعر به وسبقته السيارة .. بعد طريق طويل وصلتُ إلى الجامعة .. كانت جامعةً كبيرةً وبها مباني ليستْ مزينة أيضا ، بالحجارة فقط ، ويحيطها فناءٌ كبيرٌ .
تحرّيتُ عن ياسين ، إلى أن وجدتَّه يسير بين الطلاب ، يتفقد أيَّ جريمة من منظورهم ، عندما رأيتُه شعرت بالطمأنينة والأمان فابتسمتُ ابتسامةً واسعةً ، وقلتُ:
- ياسين ؟!
التفت لي قائلًا:
- ماذا تريد ؟
لم أتمالك نفسي ، عانقتَه وأنا أقول:
- أخيرًا وجدتُك .. لقد اشتقتُ لك كثيرًا .
نظر ليَ نظرةً خاليةً من التعابير ، ونزعني من بين يديه وهو يقول:
- لا أفهمك .
خبطتُ بيدي على جبيني وأنا أقول:
- أعلم أنَّني سأعاني كثيرًا هنا .
وتابعتُ قائلًا:

- أريد التحدث معك في أمرٍ ضروري .
- لا وقتَ لديَّ .
قالها وانصرف فتقدمتُ نحوَه بخطًى سريعةً ، وقلتُ وأنا أسير جواره:
- انتظر أنا صديقك في عالَمٍ آخرٍ.. ولم أجد هنا غيرك يساعدني .
- ماذا تقول ؟ يبدو أنَّك فاسدٌ ، ابتعد عن طريقي وإلَّا سلمتُك للعقاب .
وقفتُ أمامه قائلًا:
- اعطني فرصةً أرجوك .. ألَا تتذكَّر ونحن معًا في كلية العلوم ومصطفى صديقنا وقصص رنا المتكررة والبروفيسور سامي جاويش .
صمتَ قليلًا ، وقال كما قال هتلر:
- يخيل لي أنِّي رأيتُ أشياءاً كهذه في منامي .
قلتُ بسرورٍ:
- أرأيتَ أنَّني صادق !! صدقني أنا صديقك في عالم آخر .
- حتى الآن لا أفهم ماذا تريد .
قلتُ برجاءٍ وترغيبٍ:
- إذا كنتَ تريد أنْ يلمعَ اسمك في هذا الكوكب ويعرفك القاصي والداني .. ساعدني .
- وماذا أفعل بذلك ؟

تبًا لانعدام الشعور!! سأظل أقول هكذا حتى أنجزَ هذه المهمة التي كلفتها لنفسي ، لم يكن عنده حب الشهرة .. فقلتُ:
- لا تفعلْ شيئاً ، انسى كل ما قلتُ لك .. أيوجدُ في هذه الجامعة معمل كيميائي ؟
قال : نعم . ودلَّني عليه بكل بساطةٍ .

*****

جلستُ داخل الجامعة حتى جاء الليل ، وخلتْ من جميع البشر وفي الساعة السابعة مساءاً كنتُ أمام المختبر الكيمائي .. دخلتُه باحترافية اللصوص .. فقد تعلمت الكثير في هذا العالم ، تعلمتُ أنَّ إهدار الوقت جريمةٌ ، وظلم النفس جريمةٌ ، وكفيتُ عن اقترافهم ولكنِّي تعلمتُ جرائم أخرى ، لا بأس .. لا بأس إنَّها مفارقات الزمان .
لم أصدق نفسي ، هل أنا الآن في المختبر، أم هذا حلم ؟!
أولُ شيءٍ فكرتُ فيه أنْ أصنعَ حقنةَ تخديرٍ أعطيها لياسين ؛ حتى أجلبَه إلى هنا وأُجري عليه أولاً التعديل الوراثي .
ظللّت في المختبر حتى الساعات الأولى من الصباح وأنا أحاول بهذه الإمكانيات المحدودة والموجودة صنع التخدير .. وبعدها قرَّرت البحثَ عن قطة أو كلب أو أيِّ حيوان لأجربَه فيه .. خرجت من المعمل ، وظللّت أبحثُ بعيني في المكان حتى وجدتُ قطة تمارس

هوايتها المفضلة .. « النوم « .
أمسكتُها فاستيقظتْ ، اندهشتُ من ذلك واتسعتْ ابتسامتي ، يبدو أنَّها تشعرُ .. كنتُ أظنُّها لنْ تركضَ خوفًا ، ولن تبتعدَ حذرًا ، وستظل موضعها ، ولكنَّها حاولتْ الهرب فأحكمتُ قبضةَ إحدى يديَّ ، وبالأخرى أعطيتُها الحقنة ، وبعد دقيقتين تقريبًا من المواء .. نامت .
سررتُ بذلك كثيرًا فقد كنت سأواجه معضلة كبرى ، كيف كنت سآتي بصفة الشعور .. أخذتُها لأستخلصَ من حمضها النووي صفة الشعور لأنسخه وأعدِّله .
بعدما فرغتُ من ذلك ، وجدتُ الطلبة والطالبات بدأوا بالوفود إلى الجامعة ، فخرجتُ أبحثُ عن طعام ، وعن مكان بعيد عن أعين الشرطة ؛ لأنام به .

*****

استيقظتُ في المساء ، وفي اليوم التالي دخلتُ الجامعة ليلًا كأول أمس ، وبعد ثلاثة أسابيّع من الأيام المتعاقبة في العكوف على (تقنية كريسبر كاس٩) ، واستخلاص صفة الشعور من القطة .
كانت التجربة جاهزة الآن ، فقط أريد الذي سأجريها عليه .
كان وقت الصباح الباكر، انتظرتُ حتى امتلأتْ الجامعة بمئاتِ الطلبة والطالبات وجاء ياسين .. لم يكن في هذه البلدة كثافة

سكانية ، فكان المئات هو العدد المثالي للجامعة .
راقبتُ ياسين ، وانطلقتُ نحوَه بحقنة التخدير ، وأعطيتُها له من الخلف بهدوء دون أنْ يشعر بشيءٍ .. بعد عدة دقائق راحَ في سُباتٍ عميق ، فأسندته وسحبته أمام الناس في وضح النهار دون أن يشعر أحد بالريبة .. وضعته في المكان الذي أتخفَّى به حتى ينتهي اليوم الدراسي ويغادر الجميع ، انعدام الشعور سهَّل عليَّ المهمة كثيرًا ، وبعدما انتهى اليوم الدراسي سحبته للمعمل ، وهيأته للعملية وبعد ١٠ ساعات من الانهماك المتواصل ، والتعامل بحذر شديد كنت قد قصصت «الجين» المُعطل وأدخلت «الجين» المعدل في حامل البكتريا وحقنته بها .. وتركتُه في المعمل وغادرتُ قبل أنْ يذهبَ الخدر ويأتي الطلاب والأساتذة .

*****

كنتُ آتي يوميًا للجامعة ، أبحثُ عن ياسين ولم أجدْه ، حتى جاء يوم ووجدته جوار البوابة جالسًا على مقعد وينظر للأرض في حالة انغماس في التفكير، تقدمتُ نحوه وقلتُ:

- ياسين !

نظر لي طويلًا ، ثم قال:

- أنت !

قلتُ مبتسمًا:

- أجل .
فقال غاضبًا:
- تحدثتُ معي منذ فترة .. كان حديث كله هراء ثم سألتني عن معمل الكمياء الخاص بالجامعة وبعدها وجدوني به ومن يومها وأنا على هذه الحالة التي لم أعرفها من قبل .. ماذا صنعت بي ؟
سررتُ كثيرًا من شعوره بالغضب الذي وصلني وشعرتُ به ، فسحبتُ مقعدًا من جواره وجلستُ مقابلًا له ، وقلتُ ومازلتُ مبتسمًا:
- أنت الآن تشعر .
قال بغير إدراك:
- ما معنى ذلك ؟
- « الشعور» هو الحالة التي لم تكن تعرفها من قبل .. من الآن فصاعدا ستشعر بالسعادة والحزن والحب والكره والغضب والتعجب والخوف والطمأنينة والدهشة واللذة والألم وكل المشاعر الأخرى .
قال حزينًا:
- لا أعرف ما تقول .
نظرتُ في عينيه قائلًا:
- أنتَ مثلًا الآن حزينًا ، ولا أعلم لماذا .. الشعور هو عماد الروح يا ياسين ، لابدَّ أنْ تكونَ سعيدًا لذلك .

- وما معنى أنْ أكونَ سعيداً ؟
- السعادة نقيض الحزن ، فمِنْ أجلِ أنْ تشعرَ بأوج السعادة وتكون سعيدًا لا بدَّ أنْ تكونَ قد ذُقْتَ الحزن ومرارته .
- ولكنَّك تقول مصطلحات لا أفهمها .
صمتَ قليلًا ثم قال:
- ما هذا اللباس الذي ترتديه ؟
أشرتُ له بسبَّابتي قائلًا:
- هذا شعور الاستغراب .. اتبعني وسوف أعلمك كل شيء ، وأضيف لقاموسك كلمات كثيرة عن الشعور .

*****

تواليْ الأيام ، وصادقتُ ياسين مرةً أخرى في هذا العالم .. أظنُّ لو ذهبت إلى مائة عالم كنت سأختاره صديقًا في جميعهم ، فهو الصديق الذي يُغني عن كل مَنْ في الدنيا .. وأخبرتُه أنْ يساعدني في تغيير هذا العالَم .. تعلَّم ياسين الكثير ، وأحب صُحبتي لدرجة أنَّه جعلني أعمل معه في شرطة الجامعة ، وجلب لي عباءة بنية مثل عباءتِه وأصبحنا لا نفترق سوى وقت النوم .
بينما كنَّا نمارس مهام عملنا وسائرين بين الطلاب في الجامعة ، قال ياسين:
- لن نستطيعَ أنْ نفعل تعديل وراثي بتقنية « كريسبر كاس٩ «

هذه على كل هؤلاء البشر .. سيكون الأمر مستحيلًا ومرهقًا أيضًا
.
نظر لي وهو يقول مسرورًا:
- انتبهْ .. لقد قلتُ مرهقًا .. تعلمت منك هذا الشعور وهذه الكلمة من كثرة جريانها على لسانك .
قلتُ مبتسماً:
- انتبهت .
وعدتُ لموضوعِ التعديلِ الوراثيّ قائلًا:
- هذا الأمر فكرتُ فيه كثيرًا ، بالطبع سيكونُ مستحيل ، ولكنِّي حتى الآن مازلتُ لا أجدُ حلًا .
- ما رأيك أنَّني وجدت الحل .
- وما هو ؟
- جميعُ الناس يشربون الماء ، وأيُّ شيءٍ ينتشر في الماء سريعًا .. لابدَّ أن نفعل شيئًا نلقيه في الأنهار .
قلتُ مسرورًا:
- هذه فكرة عظيمة .. كيف لم تجول في خاطري !
وتابعتُ قائلًا:
- هذا شعور السرور والدهشة معًا .
في المساء بعد انتهاء العمل واليوم أيضًا ، كنَّا جالسين على أحد الأرصفة ليلًا نتحدثُ ، قال ياسين:

- حدثتني من قبل عن خالق هذا الكون والأديان ولم أقتنع وقتها ، ولكنِّي الآن أشعر أن هناك قوة عظيمة صنعت هذا الكون ، وعقلي ينازعني في هذا الشعور .. تارة يقنعني وتارة لا يصدق .

ابتسمتُ قائلًا:

- انتظرتُ هذا الشعور منك طويلًا .. ألمْ أقُلْ لك أنَّ الشعور هو عماد الروح .. شعورك صحيح أنَّه الله الخالق العظيم ، خالقك وخالقي وخالق هذا الكون الفسيح .

قال مدهوشًا:

- الله ! وهل الناس في عالمك يعرفونه ؟

- في عالمي الآخر يا ياسين ، هناك كثيرٌ من الناس من جميع الأديان يظنُّون أنَّهم يعرفون الله ، ولكنّ لا يعرفه معرفةً حقةً إلَّا القليل .. فتجد من يبغضُ ومن يسبُّ ومن يقتلُ ومن يحقدُ ومن يكذبُ ومن يتعدى على حقوق الآخرين ويرتكب أشياء كثيرة ، لو كان يعرف الله حقًا ما ارتكبها ، وهناك من يرتكبون جرائم بشعة باسم الأديان وادِّعاءِ حب الله وهؤلاء لم يعرفوا الله أبدًا مهما ادَّعوا .

نظر لي باهتمامٍ ، وقال:

- وكيف عرفتُه أنت ؟

- عندما كنتُ صغيراً وأشتكي لأمي من يُسيءُ إليَّ ، كانت تقول لي قلْ له « الله يسامحك » ، وعندما كنتُ أفعل شيئاً سيئاً ، يقول

أبي لا تفعله لكي «يحبك الله» .
كان عقلي وقلبي يتوقفان .. الله ! مَنْ الله ؟
عرفتُ أنَّه في السماء ، وأنَّ عنده جنةً لمن يحب ، ونار لمن يفعل المحرمات ، وأنَّه يراني ويسمعني دائمًا ، كنتُ أحاول كثيرًا أنْ أتخيله ، وبعقلي الصغير كنت أتخيله كبيرًا جدًا جدًا .. كنتْ لا أعلمُ أنَّه ليس كمثله شيء ، وعندما كنت أحتاج إلى شيءٍ كنت أنظر للسماء وأتحدث معه وأنا أعلم أنَّه يراني ويسمعني الآن .. أتذكَّر أنَّه كان يتحقق ما أريد .. أحببتُه كثيرًا وتيقنتُ مِنْ وجوده ، وعلمتُ أنَّه نور السموات والأرض .. هذا ما حدث معي ولكن هناك مَنْ ينكرون وجوده .
- هل رأيتَه ؟
- رأيتُ نورَه في كل شيءٍ حولي من عالَمي الصغير المحدود ، رأيتُه في أبي وهو يتصدق على فقير، وفي أمي وهي تدعو الله لكل من تعرفه ، وفي أخي وهو يطعم القطة ، ورأيتُه في القطة وهي تَلعقُ أبناءها بحبٍ غيرِ مشروطٍ ، ومِنْ وقتها بدأتْ معرفتي به ، معرفة مبنية على إيمان راسخ ، وكلَّما كبرتُ كنتُ أكتشفُ عظمتَه أكثر في عملية تنظيم الكون ورفع السماء بدون عمد ، وتعاقب الليل والنهار، وتغيير الفصول بانتظام .
تثاءبَ ياسين ، وقال وهو يشعر بالنعاس:
- حديثٌ رائع .. نستكمله في الغد .

نزل من فوق السور وهو يقول:
- وداعًا نلتقي غدًا .
- وداعًا .
بعدما نزل من فوق السور وسار قليلًا ، التفتَ لي قائلًا:
- أين ستبيت الليلة ؟
هززت منكبيّ وأنا أقول:
- أيُّ مكان .. مازلتُ لا أعلم .
فقال:
- ما رأيك أن تعيش معي في بيتي ! لم يكن عندي أسرة وأعيش فيه وحدي .
عاد وأعطاني يده ، فاستندت عليه ونزلت من فوق السور مسرورًا ، وقلتُ:
- ما جعلك تقول ذلك هو الشعور المختلِط بالشفقة والرحمة والحب معًا .
كان بيت ياسين كسائر البيوت .. دخلنا الحديقة وكان مزروع فيها بعض الخضار والفاكهة .. صعدنا العتبتين اللتان أمام الباب ودخلنا .. كان عندي فضول قديم لأرى كيف هي هذه البيوت من الداخل .. فوجدتُها مكونةً من حجرة واسعة ، وصالة ضعف حجم الحجرة ، وحمام صغير فقط ، والأرض مبلطة كالبلاط الذي في الشارع ، والصالة بها بساط مصنوع من الصوف ، والحجرة بها

بساط مثله ولكنَّه وثيرٌ قليلًا ، وغطاءٌ ، ووسادةٌ اقتسمتهما مع ياسين .

*****

استنسخنا « المليارات « من الحمض النووي الخاص بالقطة ، الذي يحمل صفة الشعور ودلَّني ياسين على ثلاثة أنهارٍ في هذه البلاد ، وألقينا فيها صفة الشعور .. وفي اليوم التالي في الجامعة سرنا بين الطلاب نراقب شعورهم .

كان كالعادة لا يصحب أحد آخر ، وكلٌّ جالس بمفرده أو يسير بمفرده ، اليوم كانوا كما هم .

لم يبدُ عليهم شيء ، فقلتُ لياسين:

- يبدو أنَّ هذه التجربة لم تنجحْ .

عبثَ ياسين في ذقنه مفكرًا ، ثم قال:

- لابدَّ أنْ نختبرَهم .. سأركض وراءَكَ وأنتَ تصطدم في أحدهم بقوة كأنَّك لم تقصد ، لنرى هلْ سيشعر بالألم أم لا ؟

- حسنًا .. هيَّا ورائي !

قلتُ ذلك وركضتُ وركض خلفي واصطدمتُ بأحدهم بكل قوتي .. تألمتُ وتأوَّه هو الآخر متألمًا ، كان يريد أنْ يقول لقد أوجعتني ولكنَّه لم يعلم ماذا يقول ، فقال بارتباكٍ:

- لقد .. لقد .. لقد أحدثتَّ لي شيئًا !

نسيتُ ألمي وخبطَ ياسين كفه في كفي ، وأنا أقول مسروراً بصوتٍ مرتفعٍ:
- لقد فعلناها .

*****

جلسنا أنا وياسين على مقاعدنا جوار بوابة الجامعة نفكِّر ماذا سنفعل بعد ذلك ، فقال ياسين:
- الآن قد حققتَ غايتك ؟
ضحكت قائلًا:
- هذه بداية الغاية .. ماذا سأفعل إنْ كانتْ غايتي أنَّ الناس تشعر فقط ؟!
- وما غايتك ؟
نظرتُ للسماء حالمًا وأنا أقول:
- تأسيس المدينة الفاضلة ، حلم أفلاطون وأرسطو والفارابي وكل الفلاسفة .. أحقِّقُ العدل وأنشر السلام في أرجاء وادي القمر .
- وماذا بعد ؟
- تشعرون بالسعادة التي لم تشعروا بها من قبل ، وتعيشون حياة هنيئة أحزانها قليلة .
- ولكنِّي خائفٌ من أنْ المشاعر الدنيَّة هي التي تطغوا وتفسد البشر ، كما في عالَمك الذي تقول أنَّه مليءٌ بالدمارِ والهلاك .

- إذنْ هيَّا نفكر معًا .. ما الذي يجعل الإنسان شريرًا ويرتكب جرائم ؟

فكَّر ياسين قائلًا:

- ربَّما عندما تنقص احتياجاتُه الأساسية ، كالمأكل والمشرب والملبس والأمان .

- أجلْ .. هذه أحد الأسباب .. فإذا كان هناك عدل لنْ يكون هناك من تنقص احتياجاته ؛ لأنَّ النظام الكوني متوازن على جميع الأحياء .

ولكن هناك أناس طماعين ، لا يكفيهم شيءٌ .. معركتنا مع هؤلاء . لابدَّ أنْ نؤسِّسَ جيشاً للدفاع والردع وليس للهجوم ، ونطوِّر الشرطة .. ولابدَّ أيضًا أنَّ الناس هنا تعرفُ اللهَ حقًا ، ولا يأخذون من الأديان مظاهرها دونَ أنْ يعرفوا الجوهر الذي هو الحب والرحمة والإنسانية والاستقامة وحسن الخُلق ، فليس من الضروري أنْ يُطلِقَ المسلمُ لحيتَه ، أو يوشمَ المسيحيُّ الصلبان في أنحاءٍ متفرقةٍ من جسده ، أو يرتدي اليهودي طاقيَّةً صغيرةً ولكنْ من الضروري أنْ يكونَ جميعُهم لديهم قلبٌ رحيمٌ وضميرٌ حيٌّ . ومن أجل أنْ نعيشَ في سلام يجبُ ألَّا ندعو للقومية والأحزاب والحدود ، فجميعنا إخوةٌ في الإنسانية دون عنصريةٍ أو تطرفٍ ، هذا المفهوم هو الذي ينبغي أنْ يسودَ هذا الكوكب .

- ولكنْ من سيولينا هذا ؟

- هذه مهمَّتُك أنت .. ستبلغ الناس أنَّني مَنْ أعطيتهم صفة الشعور وبالتأكيد سيريدون رؤيتي لمعرفة الكثير عن الشيء الغريب الذي حدث لهم ، وسأشرح لهم أفكاري وغايتي .
ولكنْ عليَّ أنْ أعودَ للبروفيسور ؛ لكي أعلم كيف أرسل إشاراتٍ مِنْ هنا لعالَمنا للتواصل معكم ؛ لأنَّه أرسلني إلى هنا من أجل ذلك .
قال ياسين حزينًا:
- ولكنِّي أحببتُ صحبتِكَ ولا أريدُ فراقك .
ربتُّ على كتفه وأنا أقول مبتسمًا:
- سأعود سريعًا .. لا تقلق .

*****

ليلةُ قرارِ العودة .. نامَ ياسين جواري ، ظللّنا نتحدثُ في الظلام ونحن ناظران لسقف الغرفة ، كنتُ أحكي له عن البروفيسور، وعن مريم ، وعنه في العالَم الآخر ، فقال:
- ماذا لو رحلتَ إلى عالَمك ، ولم تستطعْ العودة إلى هنا مرةً أخرى ؟
- بالتأكيد البروفيسور عنده حل .. ثم إنَّ هذا العالم لا بدَّ أن يأتيَني في أحلامي .. وأنتَ أيضاً ربَّما تحلم بعالَمي وترى نفسك هناك .

- هل تفتقدُ شيئًا في عالمك ؟
- أفتقد مريم وأمي كثيراً .
- وأنا .. هل كنتُ أحب فتاةً هناك مثلك ؟
قلتُ مداعبًا:
- كنتَ تحبُّ جميع الفتيات .. إذا سألتْك فتاةٌ عن عنوان تقع في غرامها ، ثمَّ إذا رأيتَ فتاةً جميلةً تسير أمامك في هذه اللحظة تقعُ في غرامها ، وتنسى مَنْ سألتك عن العنوان قبل قليل ، وهكذا .. تحبُّ في يومك عشرَ فتياتٍ تقريباً كحد أدنى .
ضحكَ قائلًا:
- حقًا !
- بالطبع أمزح ، ولكنَّك كنتَ لم تجدْ فتاةً واحدةً تحبُّها كحبِّي لمريم .. أتمنَّى عندما أرحلُ إلى هناك أنْ أجدك قد أحببتَ .. الحبُّ يا ياسين هو الذي يخفِّف وَطْأَ مرارةِ الأيامِ ، ويُعطي لها نكهةً حلوةً ، دونَه كلَّ شيءٍ ثقيلٌ على النفس .
ظللّنا نتحدثُ حتى الصباح .. وبعدما غفلت قليلًا لأستسلم للنوم، قال ياسين:
- مالِك !
قلتُ دون أنْ أفتحَ عيني .
- أسمعك .
- لا تَغِبْ كثيراً .. سأشعرُ بالوحدة ، ولا أعلم كيف سيكون الشعور

!

فتحتُ عيني ، ونظرت له وأنا أقول مبتسمًا:

- لنْ تلحقَ تفتقدني كما أفتقد مريم الآن .

قلتُ ذلك ورحتُّ في النوم .

*****

مرَّت ثلاثةُ أيامٍ على هذا الحال كل يوم أتهيأ للعودة ، ونودع بعضنا أنا وياسين وأستيقظ في اليوم التالي دون أن أحلم بالبروفيسور .
كان ياسين لم يستطعْ أنْ يخفيَ سروره ولكنِّي في اليوم الرابع رأيتني أطرق باب البروفيسور .. تحوَّل حلمي لواقع وفتح البروفيسور الباب وهو يرتدي معطف يواري بدلةَ النوم التي تحته ، ونظر لي باستغراب وآثار النوم على وجهه ، وقال بصوتٍ ناعسٍ:

- ماذا تريد في هذا الوقت ؟

نظرتُ لملابسي .. وجدتُني أرتدي العباءة البنية الرثة فقلتُ:

- أنا مالِك شريف .

مسكتُ العباءةَ وأنا أقول بسرور:

- لقد نجحتْ التجربة .. هذه ملابس العالم الآخر !

دُهِشَ البروفيسور ، وسحبني من يدي للداخل وهو يقول مسرورًا:

- لم أصدق .. ادخلْ .

دخلتُ معه ، وأجلسني البروفيسور على الأريكة وجلس جواري

وهو يقول متحمسًا:
- كيف هذا العالم .. صفْه لي ، هل يشبه عالَمنا ؟ أرني الهاتف !
أين ما صورت ؟
نظرتُ لعباءتي لم أجدْ بها سوى الشال الملتف على خصري وملقاً على كتفي ولا يوجد جيوب . أدركَ البروفيسور ماذا حدث .. عَمَّ الصمتُ قليلًا حتى قالَ بخوفٍ:
- أين الهاتف ؟
قلتُ بتوجسٍ وتردُّدٍ:
- نسيتُ ارتداءَ ملابسي ، وهذه الملابس لا يوجد بها شيء أضعه به .
خبطَ البروفيسور على جبينه وهو يقول:
- ألهمني الصبرَ يا الله ، حتى لا أرتكبَ في عبدك هذا جريمةً الآن .
ظللّت صامتًا حتى قال:
- لماذا جئتَ سريعًا هكذا ؟
قلتُ باستغرابٍ:
- كل هذه الأيام .. وجئتُ سريعًا ؟!
قال البروفيسور متعجبًا:
- أنت لم تغب سوى يومين فقط !!
فغرَّ فاهي وحده ، فبالتقويم الزمني هنا مكثتُ هناك أكثر من أربعة شهور ، فقلتُ:

- تتكلم جدٌّ يا دكتور ؟
دخل أحضر المكاتيب التي كنت كتبتها لأهلي ومريم وقال:
- أجلْ .. وهذه المكاتيب مازالت معي لأنَّك لم تغبْ أكثر من أسبوع !
قلتُ ومازلتُ مدهوشًا:
- لقد مكثتُ هناك أكثر من أربعة شهور، وحدثتْ أشياء كثيرة ، وكدتُ أهْلَكَ .. إنَّه عالمٌ غريبٌ جداً !
جلس البروفيسور أمامي ، وقال باهتمام:
- لقد شوقتني كثيرًا ، قُصَّ لي كلَّ ما حدث ، وما رأيتُه مُنْذُّ أنْ ذهبت إلى الآن .
قصصتُ للبروفيسور كلَّ شيءٍ ، فقال:
- ولكنْ لنْ يصدقنا أحدٌ .. ربَّما كانتْ الصور تفعل شيئًا .
قوَّس شفتيه وهو يتبع:
- ربَّما .. ولكنْ هكذا لنْ يصدقنًا أحدٌ أبدٌ .
- وماذا سنفعل الآن ؟
قال البروفيسور يائساً:
- لا بدَّ أنْ تعود مرة أخرى ولكنْ بعد أنْ نرى كيف سيتم إرسال إشارات وتتلقاها هناك ، أو ترسل لنا أنتَ الإشارات .
قلتُ:
- لقد جئتُك من أجل ذلك خصيصًا .. كيف يتم ذلك ؟ إنَّه عالم

بدائي بعض الشيء ، أظنّ أنَّه لا يوجد هناك شيء كوكالة ناسا هنا .
- سأعرض هذا الموضوع على عدة علماء ونرى ماذا سنفعل ، فلي صديق أمريكي يعمل في مشروعٍ ضخم للبحث عن حضارات أخرى سأتحدث معه .. وبعدها سأتواصل معك .
- حسنًا .. والآن سأعود إلى أهلي أطمئنهم عليَّ .
أومأ البروفيسور برأسه وهو يقول:
- حسنًا .. ولكنْ انتظرْ هنا حتى الصباح ؛ لأن الساعة الآن الثالثة صباحًا ، وسأحضر لكَ ملابس غير هذه .

*****

العاشرة صباحًا كنت أمام بيتي .. أطرق الباب ، ففتحتْ أمي وتبدو حزينة جدًا ... وجدتني أمامها وأرتدي أحد « ترنجات « البروفيسور الرياضية ، وكان مقاسها يكبُرني وأبدو كالأبله المهمل بها ، لم تصدق أمي فأخذتْني بين ذراعيها وضمتْني بقوة وهي تقول بشوق ولهفة كأنَّها لم ترنِ منذ قرون:
- مالِك !! أين كنت ، وأين ملابسك ؟ من فعل بكَ هذا ؟
لم أتكلمْ .. عانقتُها طويلًا ، فقالتْ أمي:
- لم أذقْ طعم النوم في هذين الليلتين .
- أنا بخير يا أمي .. اطمئني .
قلتُ ذلك ودخلتُ حجرتي ، وجلستُ على سريري الذي اشتقتُ

إليه ولحجرتي كثيرًا ، وجاءتْ أمي ورائي وجلستْ على طرف السرير قبالتِي ، فقلتُ:

- أين أبي ومروان ؟

- عندما تأخرتَ ووجدْنا هاتفك مغلق ولم تأتِ أمس ولا أول ، اتفقنا أنْ يبلغوا الأقسام اليوم
وغداً يبحثون في المصحات .. حمدًا لله على سلامتك .

نهضتْ وهي تردف بسعادةٍ مفرطةٍ:

- سأجلب الهاتف الآن ؛ لأتصل بهم وأخبرهم أنَّك هنا .

عاد أبي وأخي مسرورين بعودتي ، جميعهم سألوني بإلحاح أين كنت ، ولكنِّي رفضتُ الإفصاح عن شيء ، أعلم أنَّهم لن يصدقوني وربَّما يشعرون بالريبة من سلامة عقلي ، لذلك فضَّلتُ ألَّا أبوحَ .. وأخبرتُهم ألَّا يقلقوا عليَّ إذا غبتَ ثانيةً .

اطمئنوا جميعًا عليَّ وتركوني أنام .

بدا كل شيءٍ عاطفياً جدًا ، اشتقتُ كثيرًا لهذه الأجواء ، فقد كنتُ أتعامل مع أناس كالأصنام .

*****

في المساء جاءني صديقاي مصطفى وياسين ، جلسا معي في حجرتي ، سحب ياسين المقعد المستقر أمام مكتب الحاسوب وجلس عليه معكوسًا وأسند كفيه وذقنه على ظهر المقعد وجلس مصطفى

جواري على السرير، وقصصتُ لهم كلَّ شيءٍ ، أعلمُ أنَّ ما قصصتُه يخلو من المنطق ويبدو خيالياً ولا يصدَّق لذا كانوا في شك ، فقال مصطفى مداعبًا:

- يومين فقط تتغيَّبُ فيهم .. تتعاطى المخدرات !!

وتابع ياسين مداعبًا أيضًا:

- أليسَ من العيب أنَّ كيميائي مثلَك يتعاطى مخدرات ؟ فماذا يفعل طالب آداب إذن !

ردَّ عليه مصطفى قائلاً:

- ربَّما يتجه للعبِّ الغولف .

فقلتُ مستنكرًا:

- حسنًا ، هلَّا انتهيتما من السخافة ، أم أنتظر حتى تفرغا منها ؟

رفع ياسين أحد كفيه قائلًا:

- أنا انتهيت .

- وأنا أيضًا .

قالها مصطفى فقلتُ:

- إذنْ ماذا يجدر بي أنْ أفعل لكي تصدقوني ؟

قال ياسين ومازال يمزح:

- تأخذُنا معك .. أحب أن أرى نفسي بنفسي وأنا كبيرٌ .

وقال مصطفى:

- وأنا أريدُ أنْ أبحثَ عني .

أغمضتُ عيني ، وأخذتُ شهيقًا وزفرتُه لأمتصَّ غضبي ، وقلتُ:
- هيَّا اخرجا من غرفتي .. هيَّا !
ضحك الاثنان ، فقال ياسين بجدية:
- إنَّه شيءٌ خياليٌ لا يصدقه عقل .. ولكنْ بالمحصلة نصدقك .
قلتُ:
- وما رأيكم ؟
قال مصطفى:
- أنا رأيي ألَّا تعودَ ثانيةً .
قال ياسين:
- وأنا رأيي أنْ تتَّبع شغفك حيث كان .. خصوصًا أنَّ هدفك سامي ، والعام هناك أقل من اسبوع هنا .
قلتُ مرجِّحاً لكلام ياسين:
- هو ذاك .
وأردفتُ بجدية:
- ألَا تحبون أنْ تغامروا معي ؟
أشار ياسين بإصبعيه السبابة والوسطى قائلًا:
- لا سلطان على شيئين .. الأحلام والقلب ، ما أدرانا أنَّنا سنحلم معك بواد القمر !
وأردفَ بخبثٍ:
- بمناسبة القلب .. هلْ ستأتي للجامعة غدًا ؟

قلتُ ضاحكًا بسخريةٍ مريرةٍ:
- ألَا تعلمون ! لقد خُطِبَ القلب .. ولكنِّي سآتي لعلِّي أراه .

*****

في اليوم التالي ذهبتُ للجامعة ، لم أحضر محاضراتي ولم أجلس مع أصدقائي ، عند وقت كل محاضرة لمريم كنتُ أذهب لرقم المدرج فأنا أعلم جدول محاضراتها وأحفظُ مواعيدَها عن ظهر قلب .
جاء موعد آخر محاضرة ولم أجدها كما توقعتُ ، وجدتُ صديقتها المقربة وحيدة فاتجهتُ إليها ، وأوقفتُها قائلًا:
- فرحة !
توقفتْ قائلةً:
- كيف حالُك يا مالِك ؟
- بخيرٍ .. أريدك أن توصلي تلك الرسالة لمريم .. لأنَّ هاتفَها مغلقٌ ولا أستطيع الوصول إليها .
- حسنًا .. أين هي ؟
كان معي كراسة معلقٌ بها قلم .. ففتحتُ صفحةً بيضاءَ وكتبتُ سريعًا « مريم أعلم أنَّه لا يحق لي قول الذي سأقوله الآن ، ولكنِّي اشتقتُ لكِ حدَّ المسافة بين السماء والأرض .. حدثتْ لي أشياءَ كثيرة كنتُ أريد أن أقصها لكِ بالتفصيل ، ولكنْ لا بأسَ أتمنَّى أنْ تكوني بخير وسعيدة «

، ونزعتُ الورقة وطويتها ، وأعطيتها لفرحة وانصرفتُ .

*****

وأنا في طريقي للعودة إلى المنزل .. كنت أستقل سيارة ثم مترو الأنفاق لأصل إلى بيتي ، جاءتني رغبة ألَّا أستقل سيارة وأقطع تلك المسافة الصغيرة نسبيًا حتى مترو الأنفاق سيرًا على الأقدام .
سرتُ أراقب الناس وتعابير وجوههم .. اشتقتُ كثيراً لرؤية ناس تشعر .. كلَّما رأيتُ شخصًا يسير بمفرده أراه عابس الوجه ، وإنْ كانا اثنين يكونان سعداء هذه اللحظة ، أو ربَّما يشبَّه لي ذلك ، وإن كان أكثر من اثنين تكون ملامحهم حيادية لا هي بالعابسة ولا هي بالسعيدة .. لم تكن تلك القاعدة ولكن كان الأكثر .
كنتُ أشفقُ كثيراً على الوحيدون الذين يسيرون أو يجلسون بمفردهم .. هناك كثيرٌ من الناس يحبون الوحدة ويقولون بها شعارات وأشعار ولكنِّي أرى أنَّهم مرغمون على ذلك ، لا يوجد أحدٌ يحب أنْ يكونَ وحيدًا دائمًا .. جميعنا بحاجة إلى شخص واحد على الأقل يفهمه جيدًا ويرافقه كظله .
الشخص الذي يصير وحيداً تمامًا لا يصل لتلك الحالة إلَّا إذا تعرَّض لكثيرٍ من الخيبات ، أو أنَّه لا يجد شخص مناسب يشاركه انفعالاته وأفكاره وكل ما يحبه ، لأنَّ الإنسان مفطورٌ على حب الأُنس وكره الوحدة ، وأنَّه لا يختار الوحدة عبثًا وإنَّما يكون مكرهًا عليها ؛ إذ

أنَّه إذا لم يجد في من حوله من يفهمه أو من يكون في مستوى وعيه ، تكون الوحدة حينها أخف وطأةً على نفسه .
دخلتُ محطةَ المترو وقطعتُ التذكرة واستقليت العربة .. لم أجد بها مقاعد فارغة ، فظللّتُ كما أنا أراقب تعابير وجوه الناس .
أكثر الناس كانوا بائسين ، عابسين الوجوه ، ويحملون بداخلهم حزن عميق .
راودتني أسئلة كثيرة ، هل الشعور معاناة ، أم إنَّ التعاسةَ أيسرُ من السعادةِ لذلك أكثر الناس تمارسها تلقائيًا ، أم العالَم به ما يكفي من المآسي والمعاناة ؟
لم أسترسل في الأسئلة لأنَّ الإجابة لن تغير من النتيجة شيئاً ولكنِّي أدركتُ أنَّ الشعور ضريبته الحزن .. وهناك سعاداتٌ قليلة عوضاً عن تلك الضريبة الباهظة الثمن .
صرتُ ألوم نفسي ، وأجلد ذاتي .. ماذا فعلتُ بالعالم الآخر ، فقد كانوا في غنى عن ذلك كله !
ولكنْ عزائي أن ثمة شعورين فقط يهوِّنا كل ذلك ، الشعور بالحب الذي يجعلُك ترى كل شيءٍ على ما يرام وترضى عن العالم بكثيره القبيح وقليله الحسن ، والشعور الآخر أنْ تشعرَ أنَّ هناك إلاهٌ عظيمٌ معك أينما كنت ، ملجأك وملاذك حين لا يبقى أحدًا ، وتُظهرُ له ضعفك دون خجل . ثُّم تشعر بعد ذلك بشعورٍ عظيمٍ ، مَهيبٍ ، أنَّ خالقَ هذا الكون كلُّه قد سمعك ، وأنَّ روحَك قد

ترممتْ واستعادتْ قوتها ، فذلك هو الجانب الذي يستحق أن نشعر لأجله .

*****

كنتُ أعلم أنَّ رسالتي لمريم ستجعلُها تأتي الجامعة في الغد .. وكما توقعتُ لقد أتتْ .
ذهبتُ للجامعة في الصباح .. وجدتُها جالسةً على درج مبنى كليتي تنتظرني .. رأيتُها قبل أنْ تراني فابتسمتُ ابتسامةً واسعةً ، واتجهتُ نحوها حتى رفعتْ رأسها وتلاقتْ أعيننا فنهضتْ وهي تقول بسرور:
- لقد تحررتْ.. رسالتك أمس جعلتني أتمردُ على الظروف واعترفتُ لسعيد أنَّني مغصوبةٌ على تلك الخِطْبَةِ وأنَّني أحبُك أنتَ .
لم أصدق نفسي ، فقلتُ بسرور ليس أقلَ من سرورها:
- وماذا فعل ؟!
- اعتذر مني وقال لننتظر شهرًا على الأقل ونفسخها حتى لا يرتابَ أحد ، ووافقتُه القرار والخطبة الآن صورية فقط .
علقتْ حقيبتها في كتفها استعدادًا للمغادرة ، وأردفتْ:
- سألحق بمحاضرتي الآن ، وأنتَ ادخل محاضرتك ونلتقي عقب نهايتهما عند كليتي .. ستسير الأمور كما كانت .
هزَزْتُ رأسي نافيًا وأنا أقول:

- فلتذهب المحاضرات إلى الجحيم .
فتحتْ إحدى راحتيها قائلةً:
- إذنْ هيَّا نجلس في مكانٍ هادئٍ .
سرنا على غير هدى حتى جلسنا على أحد مقاعد الجامعة ، ظللّنا صامتين حتى قلتُ:
- لم يكن البروفيسور مجنونًا .. هناك عالَم آخر بالفعل .
قالتْ بدهشة:
- وما أدراك ؟
- لقد انتقلتُ له .. أربعة أشهر هناك كانوا يومين فقط هنا .
- وماذا حدث معك ؟
قالتْها مريم بعفوية واهتمام ، لم تَرْتَبْ لحظة واحدة .. كنتُ أحتاج إلى من يصدقني دون ريبة وذلك لم يكن متوفرًا في غير مريم .. ثقتُها المطلقة بي كانت تجعلها تصدقني إنْ قلتُ لها أيَّ شيءٍ حتى إنْ كان يخلو من المنطق وبعيداً عن العقل كحديثي هذا .
أعدتُ لها ما قصصتُه على البروفيسور ومصطفى وياسين .. اندهشتْ كثيراً وقالتْ:
- شيءٌ مذهلٌ !
ثمَّ أشارتْ بسبَّابتها نحو صدري وأردفت بلهجةِ تهديدٍ واضحةٍ:
- ولكنَّك لنْ تعودَ ثانيةً !

- تمزحين ، أليس كذلك ؟
- لا .. لا أمزح ولكنِّي لم أربحك في اليانصيب حتى أتركك تذهب لعالم آخر وتحيطك المخاطر.
قلتُ بغضب:
- ولكنَّكِ تركتني أذهب له يوم خطبتك ، أم نسيتِ ؟
- بالطبع ظننّتُك تهددني لأنِّي كنتُ لا أظنُّ واحداً بالمائة أنَّ هناك عالم آخر .. أو أنَّ البروفيسور لم يعانِ من مشكلة ذهنية .
استرددتُ هدوئي قائلًا:
- مريم ! أعلم أنكِ تقولين ذلك بدافع الخوف عليَّ .. ولكنْ لا بدَّ أنْ أكملَ ما بدأته .
- إذنْ أُكْمِلُ خطوبتي التي بدأتُها أنا أيضًا !
- هكذا رأيك ؟
أومأتْ برأسها وهي تقول:
- أجلْ .
- ألَا تعلمين مدى حبي لكِ .. لقد تركتُ هذا العالم وذهبتُ للمجهول ؛ لكي أهرب من أحزاني لأنَّني لو لم أفعل ذلك لربما كنتُ جُنِنّتُ وأنتِ تقولين هذا ؟
ابتلعتْ مريم غصتها وقالتْ:
- ولكنِّي أحبك أيضًا ولا أريدك أنْ تذهبَ .
- إذنْ دعيني أفكر ماذا سأفعل .

- أنا أعلم أنَّك لن تذهبَ ، ولنْ تتركني مرةً أخرى .
نظرتُ لها بجانب عيني قائلاً:
- أتعلمين الغيب ؟
هزت منكبيها قائلةً بدلالٍ:
- لا .. فقط أعرفُ كيف يفكر حبيبي .
أجلْ .. تعرف كيف أفكر ، وتعرف كيف تجعلني مطيع كأنَّني أسد هصُور تروضه ، عجيبةٌ هي حواء ، لها سحر على الرجال يفوق سحر هاروت وماروت ، وقوة خفية تدحضُ قوة قوم عاد . تغاضيتُ عن ذلك الموضوع دون أنْ أحسمَه ، وتحدثنا عن الأشواق وكيف مرَّت تلك الأيامُ القليلةُ عليها كثيرةً عليَّ دون الآخر .. حتى غادرنا المكان وذهبتْ هي لأصدقائها ، وعدتُ أنا إلى كليتي ثانيةً ، لأجلس مع أصدقائي .. انتظرتُهم بالخارج على الدرج موضع مريم حتى انتهتْ المحاضرة وذهبنا إلى « الكافتيريا « ؛ لنأكلَ شيئاً .

*****

مرَّتْ عدة أيامٍ .. كنتُ أقضي لياليَّ في حيرة من أمري ، تمرُّ ساعات وأنا أفكِّر وأتقلَّب على الوسادة ذات اليمين وذات الشمال ، أأقنع بذلك القدر من المغامرة وأحمد الله أنَّ مريم عادتْ لي ، أم أكمل ما بدأتُه .

كان الاختيار الأول له أسباب مقنعة والآخر أيضاً ، فكنتُ بحاجةٍ إلى قرارٍ يدفعني للخوض فيه من تلقاء نفسه دون أنْ أحسمَ أنا قراري ، حتى إن كان قرارًا غير موفق فذلك أخفُّ وطأةً من الشعور بالتيهِ والحيرةِ .

حتى جاء اليوم الذي اتصل فيه البروفيسور ليخبرني أنَّه ينتظرني اليوم الساعة الثامنة مساءً في منزله .

ذهبتُ له في الميعاد ، وجدته ومعه صديقه الأمريكي .. عالم فيزيائي يدعى « روبرت والتر « . كان قد أتى من أمريكا خصوصًا لكي يرى طريقة مناسبة مع البروفيسور/ سامي جاويش لإرسال الإشارات إلى العالم الآخر ؛ لأنَّه يعمل في مشروع كبير لبثِّ إشارات في الفضاء ؛ بحثًا عن حضارات ذكية ، وكان يتحدث بعربية جيدة فسألني:

- لماذا جعلتهم يشعرون ؟ كنَّا نريد أن نتواصل مع هذا العالم كما هو .. لنرى غرابته كما رأيته أنتَ !

- إذا كانوا لا يشعرون .. كانوا لنْ يتحمسون أبداً للتواصل معنا ، فكل ما وصلنا له من تقدم حضاري كان سببه الفضول بشكلٍ أو بآخر .

قال البروفيسور/ سامي جاويش:

- هذا رأيي أيضًا .

ظلَّ السيد والتر يسألني عن أشياء كثيرة وأنا أجيب ، أسئلة بعضها

ينمُّ عن ذكاء حادّ وبعضها ينمُّ عن غباء لا متناهي ، وبعدما انتهينا من الحديث كان مليئًا بالدهشة والتشويق ، فقال موجِّهاً حديثه للبروفيسور:

- قبل أيِّ شيءٍ آخر، أريد أن أخوض تجربة كهذه .

- عندما ننتهي من أمرنا يمكنك أن تفكِّر في هذا .

- ولكنِّي أريد تجربتها الآن .

- روبرت ! هل تعرف ما معنى أن أدخلك في حلمك ! لربما تحلم أنَّك في حربٍ وتموت ، وروحك لنْ تستطيع العودة لجسدك مرةً أخرى .

- لا تهتمْ يا سامي .. أريد أنْ أجرِّبَ .

بدأَ صوتهم يرتفع ، فقال البروفيسور:

- لنْ تخوضَ تجربةً كهذه قبل أنْ نبحثَ عن طريقة لبثِّ الإشارات .

كان أمامنا صحنُ فاكهةٍ ومعه سكين ، نظرَ له السيد والتر ولم ينتظرْ كثيراً ، أخذه وقال:

- سأخوض التجربة الآن وإلَّا غرستُ ذلك السكين في صدرك .

كنتُ في ورطةٍ حقيقيةٍ ، فلا أعلم هل تلك طريقتهما في المزاح أم أنَّهما يتحدثان بجدية ، فقال البروفيسور:

- اترك السكين يا روبرت وهيَّا فكِّر معي كيف نحدِّد موقع هذا العالم ، وكيف ستكون طريقة البثِّ .. أريد طريقة غير تقليدية .

اطمأنيت .. يبدو أنَّهما يمزحان ولكن سرعان ما خيب السيد والتر أملي وقال:
- سأريك طريقة غير تقليدية ولكنْ في موتك .
قال ذلك ووضع السكين في كتف البروفيسور الأيسر .. اندهشتُ أكثر مما اندهشتْ عندما تحوَّل حلمي لواقع ، وضع البروفيسور يده على صدره وهو يتألم ، واختل توازنه ثم هوى من فوق المقعد ، وسقط أرضًا ، فقلتُ للسيد والتر بهلعٍ وغيرِ إدراكٍ:
- ماذا فعلتْ ؟
قال خائفًا مرتبِكًا:
- لا أعلم .. لم أكن أريدُ ذلك .. ولكنْ لا يوجد متسعٌ للوقت .. هيَّا هاتِفْ الإسعاف .
اتصلتُ بالإسعاف وأعطيتُهم العنوان ، وأتوا في غضون عشرِ دقائق بعدما فقدَ البروفيسور الوعي وحاولنا أنْ نوقفَ له النزيف .
ونحن في الطريق إلى المستشفى ، كنتُ أنظر للسيد والتر بتعجبٍ ، إنَّه رجلٌ أحمقٌ متهورٌ لا شكَّ في ذلك ، ولكنَّه نبيلٌ فهو يعلم أنَّه سينال عقاباً على فعلته تلك ولكنَّه أتى غيرَ عابئٍ بذلك !
وصلنا إلى أقربِ مستشفى في طريقنا ، ودخل البروفيسور قسم الطوارئ .
ظلَّ السيد روبرت والتر يبكي ويلومُ نفسَه وهو يقول لي:
- لنْ أسامحَ نفسي إذا حدثَ له شيءٌ ، لا بدَّ أنْ أنالَ عقابي يا مالِك

.. لا بدَّ أنْ أنالَ عقابي .
كنتُ لا أعلم هلْ أواسيه أم أوبِّخه ؟ ولكنْ في تلك اللحظة أتى ضابطٌ ومعه من سيدوّنون أقوالَنا ؛ للتحقيق في تلك الواقعة .
فقال السيد روبرت والتر وهو يبكي ويشير نحو صدري:
- إنه هو .. لقد حدثت مشادة كلامية بينَّه وبينَ صديقي سامي ، فأخذَ سكينَ الفاكهة وغرسه في كتفه .
اجهشَ بالبكاء ، وأتْبَعَ:
- لم أستطعْ أنْ أنقِذَه .. لقد كان سريعًا مخادعًا هذا الوغد .
ثم أردفَ بجديةٍ واضحةٍ دون بكاءٍ:
- ولكنَّه لم يكن وغدًا كليًا ، لقد أتى ليعترفَ على نفسه وينالَ عقابه .
فغرَّ فاهي ، وانعقد لساني ، فقال الضابط موجِّهًا حديثه لي:
- هل لديك أقوالٌ غير ذلك ؟
ابتلعتُ ريقي قائلًا:
- لقد حدثَ ذلك فعلا ولكنْ معه هو .. فهو الذي ارتفعَ صوتُه على البروفيسور ، وأخذ السكين وغرسه في كتفه .
أمرَ الضابط بأخذنا نحن الاثنان لقسم الشرطة على ذمة التحقيقات ، وبعدما أودعونا في الحبس مع المجرمين ، قلتُ للسيد والتر بغضبٍ:
- ما كل هذه الحماقة ؟! تقتل وتكذب ! لماذا ادعيتَ عليَّ هذا ؟

كان آخرَ عامٍ لي في الكلية ، لقد ضيَّعت مستقبلي للأبد .
هدئني وقال:
- انتظر.. انتظر سيأخذون بصماتنا ، وبصماتي هي التي ستطابق مع البصمات على السكين .
- إذنْ لِمَ فعلتَ هذا ؟
- لكي تأتِ معي إلى هنا وتفعل بي ما فعله سامي عندما أدخلك في حلمك .. سأنتقل أنا لعالمٍ آخر ، وأنت ستخرج من هنا ، وسامي سيكون بخير لا تقلق .
- أنت مجنون ، لا شك في ذلك .
- صدقني لم أقصد كلَّ ذلك .. كنت أريد تهديد سامي فقط وخدشه .
تدخَّل صوتٌ لم نعرف صاحبه أتى من آخر الحجرة قائلًا:
- كفوا عن الثرثرة ، أريد أنْ أنامَ .
التزمنا الصمت بضعة دقائق ، حتى قال والتر بصوتٍ منخفضٍ:
- كيف أدخلك سامي في الحلم ؟
بادلتُه الرد بصوتٍ منخفضٍ:
- أعطاني قرص منوم وظل جواري حتى علم أنَّني أحلم الآن ، فرفعني في الهواء وألقاني .
- كيف علم أنَّك تحلم ؟
- قال وقت الحلم ترفُّ الجفون بسرعةٍ غيرِ معتادةٍ .

كان الهدوء يعمُّ المكان والجميع ملتزمَ الصمتِ ، لذا كان همسُنا واضحًا ، فتدخَّل الصوتُ مرةً ثانيةً ، ولكنْ بنبرةٍ حادةٍ وغليظةٍ:
- لا .. هذا كثيرٌ لنْ تكونا أنتما والحرارة المرتفعة ضدي .. ولكنَّكما معذورين على كلِّ حالٍ ، فمازلتما لم تعرفا (عبده البرنس) .
قال ذلك ونهضَ ليتَّجهَ نحونا .. كان رجلاً نحيلاً ، يغوص في ملابسه ، ربَّما في أواخر عقده الرابع ، أسمرُ البشرة وبه آثار جروح غائرة في وجهه وذراعيه .. على ما يبدو أنَّه بلطجيُّ السجن .
فوقفنا تلقائيًا لنستقبله .. قلتُ لوالتر بصوتٍ منخفضٍ:
- هل شاهدتَ السجن في أفلام مصرية من قبل ؟
- لا .
قلتُ متوجِّسًا:
- ستشاهده الآن على الطبيعة ، عليك أنْ تحمي وجهك .
تقدَّم نحونا عبده البرنس ، وجميع السجناء كانوا يترقبون ما سيحدث ، فقال والتر:
- مرحبا «مستر» عبده البرنس .
ضحك جميع السجناء على طريقة نطقه ، بينما قال عبده البرنس:
- أصبح المعلم عبده البرنس «مستر» .
وظلَّ يطلق ضحكات سخيفة على تلك المزحة السمجة ، واتْبَع بجدية:
- بماذا جئتم ؟

قلتُ سريعًا وأنا أهندم ياقةُ قميصي:
- جريمة قتل .
ضحك قائلًا باستخفاف:
- أنتما تقتلان !! لقد أهنتم الإجرام !
كان مشهدً سينمائياً بامتياز ، فوشوشني السيد والتر بالإنجليزية حتى لا يفهم عبد البرنس:
- سأجرِّب فيه طريقة سامي في نقلك للعالم الآخر وإن نجحتْ عليه ستنجح عليَّ ، ابحث لي عن طريقة تجعلني أجلس جواره !
قال عبده البرنس:
- ماذا يقول ؟
قلتُ:
- يعتذر على الإزعاج ويقول لك سنظلُّ جوارك ، نستخدم أيدينا كمراوح تجلب لك الهواء حتى تنامَ .
أعجبتْ تلك الفكرة السيد والتر .. هكذا سنجلس جواره وهو نائم دون ريبة ، وأعجبتْ أيضًا عبده البرنس وأرضتْ غروره ، فقال:
- حسنًا .. هيَّا اتبعوني !
سرنا خلفه وقلت للسيد والتر بصوتٍ منخفضٍ:
- أتعرف ماذا سيحدث إذا ألقيته في الهواء ولم تنجح التجربة ؟
- ماذا سيحدث ؟
- ربَّما يغتصبك .

استلقى عبده البرنس على بساطٍ مهترئٍ ولكنَّه مميزٌ عن الجميع ؛ نظرًا لأنَّه الزعيم هنا ، جلسنا جواره وظللّنا نحرك كفوفنا كالمراوح في حركات دائرية ، ضحك السجناء الآخرين في بداية الأمر ولكنَّ عبده البرنس أسكتهم لكي ينام ، كنَّا نراقب عينيه وجفونه ونرخي أيدينا كلما تعبنا ، حتى جاءت اللحظة الحاسمة ورفَّتْ جفونه سريعًا ، فحمله السيد والتر ورفعه في الهواء بكلِ قوتِه ، ثم ألقاه فسقط عبده البرنس أرضًا يتألم آلامًا شديدةً وسط ذهول وصدمة كل السجناء .

لم أستطع كتمان الضحك رغم أنَّ والتر أدخلني في ورطة أخرى !
منذ أنْ رأيتُه وهو لا يخرجني من ورطة حتى يقحمني في أخرى .. جعلني أظنُّ أنَّني أحلم ، فليس من الطبيعي كل هذه المشاكل !

*****

تجمَّع السجناء سريعًا حول عبده البرنس ، وحدث هرج ومرج داخل الزنزانة على إثْرِهِ أتى بعض العساكر الحراس يسألون ماذا يحدث ، فقال عبده البرنس وهو يتحامل على آلامه:

- لا تخبروهم بشيءٍ سأعرف كيف آخذ حقي بنفسي .

تكرَّر سؤال الحراس ولا أحد يردّ ، فقلتُ:

- لقد سقط مغشيَّاً عليه واصطدم في الأرض بقوة .. لا بدَّ أنْ يذهبَ إلى المصحة الآنَ .

أتى طبيب السجن بعد ساعة .. في تلك المدة كان عبده البرنس يفرغ ألمه في تهديد ووعيد السيد والتر بأنَّه سيجعله عبرة ، وسيجعله يتمنى الموت ولا يدركه ، وأشياءٌ من هذا القبيل .
أمرَ الطبيب بأخذه إلى المصحة لعمل عدة فحوصات على عظامه .. وبعد قليلٍ جاءت الإسعاف ، وانتقل عبده البرنس إلى المصحة .

*****

بعدما انفضَّ السجناء ، وعادَ كلٌّ منهم لموضعه .. جلستُ على الأرض مستندًا على الحائط بظهري أفكر في مصيري بضيق شديد ، فجاء السيد والتر جلس جواري وقال:
- ربّما تكون التجربة فشلتْ مع عبده البرنس لشيءٍ ما لم نعرفه ..
نظرتُ له قائلًا بامتعاضٍ:
- ماذا تريد الآن ؟
- أريدك أنْ تدخلني في حلمي كما أدخلك سامي .
- سيد والتر ألَا تفهم.. لقد فشلتْ التجربة .. يبدو أنَّه لا أحد يستطيع فعلها سوى البروفيسور .
- لا عليكَ ، جرِّبها فيَّ ولا تقلق !
- لا .. لنْ أُجري عليكَ تلك التجربة .. لنْ أتحمَّل صوتَ آلامِك إذا فشلتْ .
- ربّما عبده البرنس أسودُ القلب وما حدث له كان جزاءه .. لعلَّها

تنجح مع آخر .
نظرتُ له قائلًا:
- تعني أنَّك تريد إعادتها مع شخصٍ آخر ؟
- أجلْ .
- أنا لنْ أجرِّبها معك حتى وإن نجحتْ على أخر .. هذه حقارة أنْ نجعلَ الآخرينَ فئرانَ تجاربٍ .
- كما تريد .. سأجرِّبها لأجعلَ شخصًا آخر يفعلها معي .. ليس بالضروري تكون أنتَ .
- لا أرجِّحُ ذلك .. عبده البرنس يبدو أنَّه قد كُسر ظهره .. لو علموا أنَّك المتسبِّبُ مع قضية البروفيسور أيضًا .. ربَّما لنْ تطأَ أمريكا مرةً أخرى .
- لا عليكَ بذلك كلَّه .. أنا أتَّبِعَ شغفي ولا أفكر في العواقب .
- هذا تفكيرٌ جيدٌ إذا كانتْ العواقب تخصك وحدك .
قلتُ ذلكَ واتْبَعتُ منفعلاً:
- ولكنَّ العواقب تَطُول كل ما حولك ، فما ذنبي لكي أكون هنا ، وما ذنبُ البروفيسور ، وما ذنبُ عبده البرنس ، وما ذنبُ الذي سيكسر ظهره هذه المرة ؟!
- سأضع فراشي الوثير هذه المرة فوق الأرض التي سألقيه عليها .
- وما دوري في ذلك .. لا أفهم .
- تدبِّرُ لي حيلةً كالتي دبرتَها لعبده البرنس .. تجعلني أراقبه أثناء

النوم دون ريبة .
- سيد والتر دعك من هذا الهُراء واتركني وشأني .. إنَّك تحمِّلني ما لا طاقة لي به ، وأنا في غنًى عن ذلك كلَّه .
كان السجناء يحدثون ضجيجًا عالياً .. بعضهم يحدِّث الآخر ، وبعضهم يضحك وبعضهم يغنِّي ، وبعضهم يسبُّ الآخر ، فقال السيد والتر بصوتٍ مرتفعٍ:
- اصمتوا قليلاً !
فتفاجئ أنَّ الجميع صمتَ فورَ انتهائِه من الجملة ، فاندهشَ لذلك ، فأخفضَ نبرةَ صوتِه وقال ضاحكًا:
- انظرْ لقد صمتوا حقًّا !
- يبدو أنَّك أصبحتَ البلطجي هنا بدلاً من عبده البرنس ؛ لأنَّك هزمته .
- ماذا يعني هذا ؟
- يعني أنَّك الزعيم هنا الآن .
فقام السيد والتر يختبر ما قلتُ ، وقال لأحدهم:
- أيُّها الرجل .. تعال !
فانصاعَ لأمره وأتى .. هؤلاء الناس عجيبون ، تُحطَّم لهم صنم فأتوا بآخر وكأنَّهم لا يقدرون على العيش دون مهانةٍ .
لقد أعطى اللهُ الإنسانَ كامل الحرية وميَّزه بها عن جميع المخلوقات ، ولكنِّي لا أعرفَ لمَ البعض يحرم نفسه هذه الهبة

الإلهية ويسمح لآخر بالتسلط عليه !! لعلَّه الغباء .

*****

جاء الرجلُ ، فسأله السيد والتر:

- ما تهمتُكَ ؟

أجاب الرجل:

- سرقة .

- وكمْ تتوقع فترة عقوبتك ؟

- ربَّما ثلاث سنوات .

ربَتَ السيد والتر بيده على كتف الرجل وقال:

- ما رأيك إنْ أخرجتُك اليوم ؟

- وكيف ذلك ؟!

- لا يهم .. إذا أردتَّ الخروج سأخرجك .

- والحكومة ستتركني ؟

- لنْ تراكَ الحكومة .

قال الرجل ببلاهةٍ جليةٍ:

- أنا لا أفهمُ شيئاً .

- ستفهمُ عندما تخرج .. وإذا أردتَّ العوة إلى هنا مرة أخرى فكِّر فيَّ حتى تحلم بي .

- حسنًا ! هيَّا أخرجني الآن !

وَشْوَشَهُ السيد والتر:
- ليس الآن .. بعدما تنام وينام الجميع ، ولكنْ اسمح لي أنْ أجلسَ جوارَك عندما تنام .
ارتابَ الرجل ، فقال:
- لقد راجعتُ نفسي .. لا أريد الخروجَ .
- لا تخفْ .. ثِقْ بي ، لنْ أضرَّك .
مدَّ السيد والتر يده يصافحه قائلاً:
- هذا ميثاقُ شرفٍ .
صافحَهُ الرجل واطمأنَّ قليلًا وقال بترددٍ:
- حسنًا .

*****

وضع السيد والتر فراشَه جوارَ الرجل الذي سيحاول نقلَه لعالَمٍ آخرٍ كان يدعى مسعود ، وبعدما نامَ الجميع انتقل السيد والتر من فوق فراشه ، وجلس جوارَ مسعودٍ يترقَّب تحريك جفونه سريعًا .
كنتُ نائمًا على سريري أتابع ما يحدث وأدْعي بداخلي ألَّا يحدثَ مكروهٌ لمسعودٍ .
ظلَّ السيد والتر جوارَه كثيراً .. مرَّت ساعات ومسعود كان غارقًا في النوم بينما السيد والتر يقاوم النعاس وأنا أيضًا ، حتى أتتْ

اللحظة الحاسمة فرأيت السيد والتر حمل مسعود فوق ذراعيه وألقاه فتلاشى جسده .. اندهشتُ كثيراً واندهشَ السيد والتر فقفز في الهواء وظلَّ يصيحُ بصوتٍ مرتفعٍ:

- لقد نقلتُ مسعوداً لعالمٍ آخرٍ .. لقد نجحتْ التجربة !

فاستيقظ كثيرٌ من السجناء إثْرَ صياحه وأخذَ بعضهم يسألُ « أين مسعود « .. فقال السيد والتر:

- لقد سئِمَ السجن وأراد الخروج فأخرجتُه بطريقة سحرية .. من يريد الخروج فليخبرني !

ارتابَ الجميع ولكنَّه لم يعرْهم أيَّ اهتمامٍ .. جاء جواري ليجعلني أنقله لعالمٍ آخرٍ ، ولكنِّي تظاهرتُ بالنومِ وفي الصباح نادى عسكريٌّ على مسعود ، يبدو أنَّ أحد المساجين قد أخبره بقصة اختفاءه المريبة وأراد التأكُّد .

فقال أحدهم:

- لقد أخفاه الخواجة .

بعد التحقيق في الواقعة نقلوا السيد والتر إلى زنزانةٍ منفردًا .

*****

بينما أنا بقيتُ لا أعرفُ ما مصيري .. ظلَّ التفكيرُ يأكلُ في رأسي .. لم يخطرْ لي يوماً أنْ يحدثَ لي ذلك كله ، فالحياة غير مضمونة البتة .. الدقيقة القادمة تحتمل احتمالاتٍ كثيرةٍ ، وكل شيءٍ قابلٌ

للتغيير ، لا سلطان على شيءٍ في هذه الدنيا !
ظللّت أفكر ماذا حدث للعالَم الآخر بعدما أصبحوا يشعرون ! اليوم هنا بشهرين هناك ، لقد تأخرتُ كثيراً .. كيف حال ياسين الآن ؟ هل حقَّقَ ما كنتُ أريده ، أم أخفقَ ، أم ينتظرُني ؟ لعلَّه ظنَّني لنْ أعودَ ثانيةً .. كيف سارت الأمور هناك دونَ دينٍ وأخلاقياتٍ وقوانينٍ؟ لربَّما أهلكوا أنفسهم !
لقد أهلكني التفكير حتى أنَّني أردتُ الانتقال لهذا العالَم الآنَ ، كان الخروج للبروفيسور/ سامي جاويش مستحيلٌ ، ولكنْ أنْ أكونَ مع السيد والتر ليس مستحيلاً تماماً .
راودتني فكرةُ أنْ أنقلَ مسجوناً لعالَمٍ آخرٍ كما فعل السيد والتر مع مسعودٍ ، لعلَّهم يضعونَنِي معه .
فجاء أحد السجناء جلس جواري ، وقطع أفكاري .. كان رجلاً ثلاثينياً ، اسمه فريد ، يرتدي نظارة طبية ، ضبطها وسألني:
- هلْ حقًا الخواجة ساحر ؟
نظرتُ له قائلًا بسخرية:
- هكذا يقولون !
- أجلْ .
- ربَّما ما فعله مع مسعود شيءٌ يشبه السحر ، ولكنَّه ليس سحراً !
- وكيف ذلك ؟
- ما فعله مع مسعود أستطيع أنا فعله معك أو مع أيِّ شخصٍ

آخر .. سأسهل لك الأمر ، هو أشبه بتجربةٍ مختلطةٍ بين الفيزياء وما وراءَ الطبيعةِ .

- وأين ذهب مسعودٌ ؟

- ذهب لعالَمٍ آخرٍ .. دخلَ في حلمه .

قال متعجبًا:

- دخل في حلمه؟!

أومأتُ وأنا أقول:

- أجلْ .. هلْ تريد الذهاب ؟

تجاهلَ ما قلتُه وقال:

- والخواجة كان يعلم بماذا يحلم مسعودٌ ؟

- لا .. هو فقط علمَ أنَّه يحلم الآن فأدخله في الحلم .

- وفرضاً كان يحلم أنَّه يغرقُ ؟

هزَزّتُ منكبيَّ وقلتُ:

- سيغرق إنْ لم ينقذْه أحدٌ .

- لم أقتنع بهذا الكلام !

- لأنَّك لا تعلم أنَّ السيد والتر عالمٌ فيزيائيٌ كبيرٌ.

- فرضًا أنَّ مسعودٌ أرادَ العودة ؟

- سيفكِّر في السيد والتر حتى يحلمَ به .

- أقول لكَ الصراحةَ .

- بالطبع !

- منذُ أولِ يومٍ جئتما وأنا أرى أنَّه تبدو عليكما البلاهة ، أو ربَّما تجربة السجن كانتْ جديدةً عليكما ولم تكونا أهلاً لها كما نحن ، واليومَ تأكَّدَ ظنِّي بعد الهُراء الذي قلتَه .. لا أعلم لِمَ المساجين تخشى الخواجة وتهابه !
- عمومًا إذا أحببتَ أنْ تدخل في حلمك أخبرني !

*****

في اليوم التالي أثناءَ تناولي الغداء ، جاء فريد جلس جواري وقال:
- أمسٌ رأيتُ في المنام أنَّني صديق « سكارليت « .. أتعرفها ؟
- أجلْ .
- تلك هي الممثلة المفضلة لديَّ .. كنتُ قد أوشكتُ على تقبيلها واستيقظتُ .
علمتُ لماذا أتى ! يبدو أنَّه فكَّر أنْ يخوضَ تجربةَ الحلمِ ، ولكنِّي تصنَّعتُ اللامبالاة حتى يظلَّ متحمسًا ، فالإنسان به طبعٌ عجيبٌ ، إذا أحب شيئًا ما ووجدَ الحصول عليه سهلاً فإنَّه يفقدُ فضوله وحماسته شيئًا فشيئا ، أمَّا إذا لقِيَ المشقة في الحصول عليه فإنَّه يستميت لأجله ، وقلتُ:
- هلْ كنتُ أنا في هذا الحلم ؟
- لا .
- إذنْ لماذا تقصه لي ! حلم تافه لم يكن مثير للاهتمام ، وشيءٌ

متوقعٌ من شاب مثلك ومثلي أنْ يحلم أحلام مثلَ تلك .
- هذا الحلم حمَّسني لِأَنْ تصنعَ بي ما صنعه الخواجة بمسعود .. لم أكنْ أعيشُ في قصر البارون حتى أخشى على ما أفقده .. أنا في السجن ، فما المانع إنْ خضتُ تجربةً كهذه .
كنتُ سعيدًا بداخلي ، ولكنِّي لم أظهر له ذلك وقلتُ بملامحَ جادةٍ:
- حسنًا .. اليومَ بعدما تنام سأدخلك في الحلم .. اخبر أصحابك بذلك !
- سأخبرهم أنْ يدعوا لي أنْ أحلمَ ب (سكارليت) .

*****

في المساء نام فريدٌ استعدادًا للانتقال إلى العالم الآخر الذي سيراه في الحلم ، وجلستُ جوارَه وتجمَّع السجناء جميعهم حولي ليروا هذه التجربة .. قال أحدهم:
- ما هي الإشارة التي ستأتي لكَ لكي تعلم أنَّه يحلم ؟
- هذا سرٌ .. لا ينبغي أنْ أقولَه لأحدٍ .
فالتزموا جميعًا الصمت .. مرَّتْ ساعات وأنا جوارَه ، فَقَدَ بعضُ السجناءِ حماستَهم وداهمهم النعاس فناموا ، وانتظر معي البعض الآخر حتى رأيتُ جفون فريد ترفُّ سريعًا فحملتُه بصعوبة وألقيتُه في الهواء فتلاشى جسده .. ابتسمتُ ابتسامةَ انتصارٍ ودهشةٍ وسطَ ذهولِ السجناءِ الذين صاح بعضهم « لقد اختفى

« ، وسألني أحدهم:
- أينَ ذهبَ ؟
وقال ثانٍ:
- ماذا فعلتَ ؟ .. يبدو أنَّك ساحرٌ أنت والخواجة !
وأتبع آخرٌ:
- هلْ خرج من السجن هكذا ولنْ تستطيع الحكومة العثور عليه ؟!
تجاهلتُ أسئلتَهم وقلتُ لأحدهم:
- نادي على العساكر الآن وأخبرهم بما حدث !
فعل كما أمرتُه ، وجاءتْ تعليماتٌ بنقلي مع السيد والتر حتى ينظروا في أمرنا ، وتحقق ما أردتُّه .

*****

أدخلني عسكري عند السيد والتر الذي كان نائماً .. كان النعاس يداهمني فنمتُ جوارَه .
في الصباح وجدتُ السيد والتر يوقظني وهو مسرورٌ ، فتحتُ عيني فقال:
- كيف جئتَ إلى هنا ؟
قلتُ ناعسًا:
- أدخلتُ فريداً أحدَ السجناءِ في حلمه حتى يأتوا بي إلى هنا .

- لكي تدخلَني في حلمي ؟
جلستُ متربعًا وقلتُ:
- لكي تدخلَني أنا في حلمي .. مرَّ الكثير هنا ولا بدَّ أنْ أعودَ لأحقِّقَ غايتي .. لا يهمَّ إرسالُ الإشاراتِ الآنَ .
- وما أدراكَ أنَّكَ ستحلم بهذا العالم تحديداً .
- يقولُ فرويد فيما معناه أنَّ المخَ يتأثَّرُ بما حوله فيخترعَ حلماً .
قاطعني قائلاً:
- كيف ذلك ؟
- يعني ربَّما تنقطعُ الكهرباء وأنت نائمٌ ، فينطفئَ المكيفُ فتشعرَ بالحرِ الشديد ، ويسيلُ منكَ العرقُ فتحلم أنَّك تائهٌ في الصحراء وأشعة الشمس تحيطُك من كل جانبٍ ، والعرق يتصبب منك .
- حسنًا .. وكيف أهيِّئُ لكَ بيئةً محيطةً ، تجعلك تحلم بوادي القمر ؟
- أنْ تقولَ هذه الكلمات حتى يتأثر بها مخي «وادي القمر .. أين أنتَ يا ياسين .. كيفَ أصبحَ الناسُ هنا « ، وكرِّرْهم كثيراً حتى تراني أحلم ، وأدخلني في الحلم .. حسناً ؟
- ومنْ يدخلني أنا في حلمي !
قلتُ أستعطفه:
- سيد والتر أنا هنا في السجن بسببك .. أرجوك ساعدني .
قال متذمراً:

- حسنًا .. الليلة عندما تنام سأدخلك في الحلم .
- لا يجبُ أنْ ننتظرَ .. ربّما ينظروا في أمرنا ، ويفرِّقوا بيننا قبلَ المساء .
قلتُ ذلك ، وتمددتُ موضعي وأنا أقول:
- أنا مازلتُ ناعسًا فلِمَ ننتظر ؟
أغمضتُ عيني وقلتُ:
- بعدما أروح في النوم بخمسِ دقائقٍ .. ردِّدْ الكلماتِ التي أخبرتُك بها .
لم أدعْ له فرصة للاعتراض أو ليُدلي بفكرةٍ أخرى ونمتُ .
*****

لا أعلم كمْ من الوقت مضى لأجد نفسي بين جماعة من الناس يتقاتلون بأسلحةٍ بيضاءَ ، وبالأرض اثنان من الجرحى وقتيلٌ ودماءٌ كثيرةٌ ، وتحوَّلَ حلمي لواقعٍ وأنا أركض حتى ابتعدت عنهم ، فوجدتُ رجلاً يبدو أنَّه كان في تلك المعركة .. به جُرْحٌ كبيرٌ في ساقه ، ملقًى على الأرض ، اقتربتُ منه لأساعده وقلتُ بهلعٍ:
- ماذا يحدث هنا ؟
قال بإعياءٍ:
- هناك قطعةُ أرضٍ ليستْ ملكٌ لأحدٍ ، أراد أحدهم أنْ يأخذَها فجاء آخرٌ يريدها أيضًا حتى أصبحنا عشرةً نريدها .

- هذا الجرح لا بدَّ أنْ يُنظَّفَ ويضمَّدَ .. هلْ توجد مصحَّةٌ قريبةٌ من هنا ؟
- لا أعلم .
- إذنْ اذهبْ إلى بيتك ، واجعل زوجتك تنظفه وتضمده .
- لقد قتلتُ زوجتي .
رفعتُ حاجبيَّ دهشةً ، وقلتُ:
- لماذا ؟
- كانت امرأةً سيئةً .
تبريرُ القتلِ أسوأَ من جريمةِ القتلِ نفسِها ، فقلتُ منفعلاً:
- إذنْ كنتَ تتركُها لا تقتُلها ، القتل جريمةٌ كبرى .. لا ينبغي أنْ تقتلَ أبداً .
قلتُ ذلك ووجدتُ رجلاً يركض نحونا .. أمسك الرجلُ المصاب وذبَحهُ بسكينٍ مسنونٍ وهو يقول:
- هكذا أصبحتْ الأرض لي وحدي .
حدثَ ذلك سريعاً فوجدتُ نفسي أركض حتى أصبحتُ في منطقةٍ هادئةٍ ، فرأيتُ جميعَ المارةِ ينظرون لي باستغرابٍ لملابسي الغريبةِ عن ملابسهم .
وبدأتْ مظاهر الحياة في عالَمنا تدبُّ في هذا العالم .. كان عن يساري رجلٌ يحدِّثُ فتاةً ، ويبدو في عينيه الإعجاب ، وعن يميني رجلٌ يسأل أحدَهم عن شيءٍ ما .

وأثناءَ سيري وجدتُ طفلاً نحيفاً يغوص في عباءتِه الصغيرة ، يجلس في الطريق ويلتهم قطعةَ خبزٍ، كان يتلفَّتُ حوله ، يبدو أنَّه يخشى أنْ يأخذَها منه أحدٌ .

لم يمضِ كثيراً ورأيتُ اثنين يتعاركان عراكاً شديدًا فخنق أحدهم الآخر ، هكذا بكل سهولةٍ قتله وسار في طريقه .. والناس تنظرُ دونَ أنْ تحرِّكَ ساكنًا ولا أجدُ من يأخذه للشرطة ؛ لكي ينالَ عقابَهُ .أصابني الذهول والاستنكار ، فلقد تسبَّبتُ في قتلِ هذه النفوس ، أكملتُ سيْرِي وقبلَ أنْ أصل إلى بيتِ ياسين وجدتُ رجلاً يلقي بامرأةٍ من فوق عقارٍ ، نظرتُ والمارة للذي قذفها ، فوجدناه ألقى نظرةً عليها ودخل غرفتَه ثانيةً .

لم يكنْ بيديَّ شيءٌ أفعله ، جرائم كبرى حدثت في وقتٍ قياسي ! أصبحَ العالم شديدُ الفوضويةِ وأقلُ عاطفيةً ، كنتُ مملوءاً بالذهول والحزن والصدمة .

ولكنْ ما هوَّن عليَّ بعضَ الشيءِ أنَّني في طريقي وجدتُ رجلاً يجلسُ مُتربِّعاً أمامَ بيته وجوارَه كومٌ من فاكهةِ اليوسفيّ ، يوزعه على المارة وهو مبتسماً .. أعطاني واحدةً فقلتُ:

- وما مقابلها ؟

- لا شيء .. أنا رجلٌ أعيشُ وحدي ، وطرحتْ شجرتي .. أخذتُ حاجتي وفاض الكثير ، فقلتُ أوزعَه حتى لا يفسدَ .

- كان بإمكانك أنْ تبدِّله بشيءٍ آخر تحتاجه .

- حديقتي تكفيني .
ربَتُّ على كتفه أحييه ، وتركتُه وواصلتُ طريقي بين البيوت المصنوعة من الحجارة الحمراء
حتى جلستُ على أحد جانبي الطريق آأكل ثمرة اليوسفي وأنا أفكِّرُ .
كنتُ حزيناً ، ولكنِّي أدركتُ أنَّ هذه الدنيا كالميزان ، والخيرُ والشرُ يمثلان كفيّه ، كلّما مالتْ كفةُ الشرِ تأتي هذه الأفعال الطيبة لتجعلَ الميزان يتساوى ، كما أنَّ هناك شرٌ هناك خيرٌ أيضاً فيجبُ أنْ نعثرَ على الخير وسطَ هذا الكمْ من الشرور ولا نيأسَ .
نهضتُ لأبحثَ عن رقم بيت ياسين حتى عثرْت عليه ، كنتُ متشوقاً كثيراً لرؤية ياسين ، طرقتُ الباب حتى فتح ونظر لي نظرةَ عتابٍ على طول الغياب .. فهمتُها على الفورِ
ولكنَّه تقدَّمَ نحوي وعانقني طويلًا ، وأخبرني أنَّه اشتاقَ لصُحبتي ، فدخلتُ وأنا أقولُ:
- ماذا حدثَ لهذا العالَم يا ياسين ؟!
قال حزينًا:
- عمَّتْ الفوضى .. انتظرتُك طويلاً، ولم أستطعْ أنْ أفعلَ شيئاً .
وأتْبَعَ معاتبًا:
- لِمَ كلُ هذا الغياب ؟
- لم أكنْ أعرفُ أنَّ اليوم في عالمنا يعادل ٦٠ يوماً هنا .

قاطعني ياسين مدهوشًا:
- اليوم هناك ب٦٠ يومٍ هنا !!
أومأتُ قائلًا:
- أجلْ .. وحدثتْ لي أشياءٌ أطالتْ عمرَ الغيابِ دخلتُ السجنَ ، والسجنُ في عالَمنا يختلفُ عن هنا كثيراً .
جلسَ على البساط واستند بظهره على الحائط ، وقال:
- اجلسْ .
جلستُ جوارَه فأكمل:
- لم يعدْ هنا سجنٌ ولا عقابٌ .. ولا أعلم ماهي وظيفتي !
وأكمل مبتهجًا:
- لقد انتشرتْ معاني الشعور بواسطتي وأحببّتُ فتاةً .. لم أتصوَّر أنَّ الحبَ بهذا الجمال
حينما كنتَ تحدثني عنه أنَّه أجملُ شيءٍ في الوجود ، هو الحسنة الوحيدة للشعور .
ابتسمتُ مردِّدَاً جملتَه الأخيرة:
- هو الحسنة الوحيدة للشعور .
- ماذا سنفعل الآن .. لقد انتظرتُك كثيراً .
قلتُ حزينًا:
- لا أعلمُ .. أنا وأنتَ فقط لنْ نستطيعَ فعلَ شيءٍ .
- ولِمَ أنتَ حزينٌ هكذا ؟

- لأنَّني بشكلٍ أو بآخر سببُ هذه الفوضى .
- هذا افتراءٌ على نفسك ، فأنتَ جعلتَهم يشعرون .. لا يقتلون ويسرقون ويفسدون الأرض .
- ليتني لم أعُدْ للبروفيسور وظللّْتُ هنا .
قلتُ ذلك وسمعنا صوتَ طرقاتٍ على الباب .. نهضَ ياسين ليفتحَ فإذْ بشخصٍ يرتدي ملابس كملابس عالَمي يدخلُ ، نظرتُ له باستغرابٍ فوجدتُه فريدَ الذي كان معي في السجن ، فقلتُ مدهوشًا:
- فريد ؟!
قال:
- أجل .
- هل نقلتُك لهذا العالَم ؟
قال معي في ذات الوقتِ:
- هلْ خرجتَ من السجن ؟
صمتْنا قليلاً ، فقال فريد:
- ألَمْ تقلْ لي أنَّني إذا أردتُ العودة أفكِّرُ فيك حتى أحلم بكَ ؟
قلتُ ومازالتْ الدهشة تتملكني:
- أجلْ .
قال بضيقٍ:
- لم أحلم بسكارليت .. لقد حلمت أنَّني من الموريسكيون الذين

بقوا في الأندلس بعد سقوط غرناطة ، ومحاكم التفتيش كانتْ تطاردني ففكرتُ فيك على الفور .. إنَّني لذو حظٍ تَعِسٍ .. كان ينبغي ألَّا أخوضَ تلك التجربة .

نظر حوله وقال:

- ما هذا المكان وما وضعي بالنسبة للسجن الآن .

ضحكتُ قائلًا:

-لم تنجُ تماماً ، أنا في حلم الآن .. وهذا عالمٌ آخر غير عالَمنا .

- كيف غير عالمنا ؟

قال ذلك وألقى نظرةً على ياسين ، وأتْبَعَ:

- إنَّه يشبه عالمنا تماماً ، ولكنْ ملابس الناس هي التي تختلفُ والبيوت .. ربَّما عصرٌ آخر .

نظرتُ لياسين الذي كان يتابعُ صامتًا وقلتُ:

- هذا فريد من عالَمي ، ألقاه حظُّهُ التَعِسُ إلى هنا .

- جيد .. فلنتحدْ نحن الثلاثة لتغييرِ هذا العالم .

ضحكتُ قائلًا:

- مازلنا قلةً .. ولكنْ لا بأسَ ، لنحاولَ .

نظرتُ لفريد ، فوجدتُ علاماتِ البلاهةِ على وجهه ، فقلتُ:

- سأوضِّحُ لكَ كلَّ شيءٍ .. لا تقلقْ .

*****

عرف فريد كلَّ شيءٍ واتفقنا أنَّنا سنسير بين الناس لننصحهم ، ونعيد كرة الأنبياء ومن يصدقنا سينضم لنا .
خرجنا في الصباح التالي نرصد أيَّ جريمة لننصح صاحبها ونصلحه ، حتى وجدنا في الطريق رجلين يتعاركان ، أحدهما قوي البنية والآخر ضعيف يحاولُ الدفاع عن نفسه .
اتجهنا نحوهما وقال ياسين:
- مرحباً .
ألقوا نظرةً عليه وعلينا ، واستئنفا عراكهم ، فقلتُ:
- لا يصحُّ ذلك .. يجبُ أنْ تنتهيا !
لم يعيروننا أيَّ اهتمامٍ ، فقال فريد:
- انصتوا لنا .. ألَمْ نحدثكم ؟
فقال القوي:
ماذا تريدون ؟
قلتُ:
- نريد أنْ نصلحَكم .. ما تفعلاه ليسَ به شيءٌ من الرحمةِ .
تدخَّل ياسين:
- هناك ربٌ يُغضِبَهُ ما تفعلانه .
وأتْبَعَ فريد بحدةٍ:
- انتهيا الآن وإلَّا عاركتكما.
فمسكه القوي من ياقة قميصه وهو يقول:

- ما هذا اللباس الذي ترتديه ؟
قال ذلك ووكزه فطرحه أرضاً ، والتفتَ لنا وأكمل:
- انصرفوا وإلَّا قتلتُكم .
نهض فريد ينفض ملابسه وركضنا بعيدًا وركض الضعيف معنا .. كان اسمه توماس ، تحدثنا معه عن الفضيلة والأخلاق ، وأنَّ هناك ربٌ يغضبه الشر وانضم لنا .
أعدنا الكَرَّةَ بقيةَ اليوم .. كلَّما شاهدنا موقفاً غيرَ لائقٍ تدخلْنا ، ولكنْ لم يستجبْ لنا أحدٌ سوى توماس .

*****

عدنا للبيتِ عندَ ياسين في المساء بين إحباطٍ وأملٍ .. تناولنا العشاء وتهيئنا للنوم في الحجرة الواسعة ، واقتسمنا جميعًا الوسادة .
أطفأ ياسين المصباح ، وبعدما استلقى كلٌ منَّا جوارَ الآخر قال فريد موجِّهاً حديثَه لي:
- وأينَ حاكمُ هذه الدولة ؟
قلتُ:
- لم يكنْ هنا حاكمٌ ولا مؤسساتٌ غيرُ الشرطةِ.. كانتْ هي التي تنظمهم وتضع القوانين .
- وعلى ماذا كانت تعاقبهم الشرطة ؟
- كانتْ تعاقبهم على جرائم لم تكنْ جرائم في عالَمنا.. أرى أنَّها

كانتْ كالضمير الحيّ الذي يعنِّفُ صاحبَه على أخطاءه ، لا أعلمُ لِمَ الشعور جعلهم ينسحبوا !
فقال فريد:
- ومن الذي كان يعين هؤلاء .. وكيف وصلوا لهذا التطور دون شعور ؟
- فريد ! هكذا كان الحلم .. أي كلُ مانحن فيه غيرَ منطقيّ ، فلا توجع رأسي بأسئلة مثل تلك !
- أرى أنَّ هذه البلاد تحتاج إلى حاكمٍ حتى لا تعمّ الفوضى أكثر .
فقال ياسين:
- وما علاقة الحاكم بالفوضى ؟
- في عالَمنا حين تحدثْ ثورةٌ على الحاكم ويهرب وتنسحب الشرطة تعمّ الفوضى .
فكَّر قليلًا وقال:
- الناس تردعهم القوانين والعقاب أكثر من الأخلاقيات وأوامر الدين ، والضعفاء هم الذين يتبعون الفضيلة والأخلاق ؛ لأنَّ ليس لديهم خيارٌ ثانٍ .. حتى أنَّ توماس هو الذي انضم لنا لأنَّه ضعيف !
مصطلح الرحمة أثار إعجابه لأنَّه رآه درع يخبئ خلفه ضعفه ، أمَّا الرجل القوي لم يهتم بما قلنا ؛ لأنَّه يعرف كيف يحمي نفسه .. أليس كذلك يا مالِك ؟

أحدث لي فريد ضجيجًا في رأسي بتلك الفلسفة ، فقلتُ بعد تفكيرٍ:
- ولكنْ هناك أقوياءٌ رحماءٌ ، ويتبعون المُثُلَ والأخلاق .
- فئة قليلةٌ جدًا وبعضهم يحافظون على مظهرهم الاجتماعيّ .. أمَّا هنا في هذا العالم لنْ تجدَهم ؛ لأنَّ لا أحداً هنا يهتم بمظهره .
قال ياسين:
- وما الحلُ ؟
ردَّ فريد:
- أنْ نبحثَ عن حاكم لهذه البلاد ليردعَ الناس ، وحينها سيتكوَّنُ مجتمعٌ ، ويصبحُ الناسُ يهتمون بمظاهرهم ومصالحهم الشخصية ، فتتقلص الفوضى .
فقلتُ:
- وحلم المدينة الفاضلة ؟
- تنساه ؛ لأنَّه ليس بوسعك تغيير العالَم .. ونعود لعالَمنا.
- ولكنَّ النصح ربَّما يأتي بثمره ، وإلَّا لم يكن الله يرسلُ لنا الأنبياء .
- انظر كمْ دعا نوحٌ قومه وبعد طولِ هذه المدة ماذا حدث ؟! ما آمن معه إلا قليلٌ .. وانظرْ كم ستعيش أنت ؟
لم أَرُدْ ولم يتحدثْ فريد ثانيةً ولا ياسين .. أمَّا توماس فكان صامتًا من البداية.. نام الجميع
وبقيت أنا متظاهراً بالنوم ، ولكنِّي أفكِّر في كلام فريد ، بقيتُ أفكِّر حتى الساعات الأولى من الصباح .

*****

في اليوم التالي كنتُ قد اتخذتُ القرار .. سنبحث عن حاكم لهذه البلاد ، ونعود بعدها أنا وفريد لعالَمنا .

قال توماس:

- وعلى أيِّ أساسٍ سنختار الحاكم ؟

قلتُ:

- لا بدَّ أنْ يكونَ فَطِناً وقريباً من الناس ، ولديه قلبٌ رحيمٌ .

خبطَ فريدٌ على وجهه كمن استفزَّه الغباء ، وقال:

- إنْ كان كذلك فلنْ يصلَ للحكم من الأساس ، ولنْ يطيعَه أحدٌ .. الناس يحترمون الذي يبطش بهم .

قلتُ:

- هؤلاء العبيد وليس الناس كافةً .

- لا تنسى أنَّ الأكثرَ هم العبيد ، وإلَّا لم يكن لعالَمنا أنْ يحكمَه الطواغيت .. سنبحث عن القوي أولًا ، وإنْ كان جبارًا في حكمه ستثور الناس ضده فيما بعد ، فالناس لا يسكتون عن الظلم كثيراً لا تقلق .

وافقَه توماس وياسين الرأي ، وبحكم تأثير الجماعة على الفرد تأثرتُ بهم فوافقتُ أنا أيضاً ولكنْ دونَ اقتناعٍ فقلتُ:

- وماذا سنفعل الآن؟

قال فريد:
- نبحث عن رجلٍ قويٍ ، يخافه الناس وله أتباعٌ يعينوه على الوصول للحكم .
سِرنا بين الناس ، نسألُ عن رجل قوي يخشاه الجميع ، كنَّا نسأل الناس الأكثرَ وداعةً من بينهم ، حتى دلَّتنا فتاةٌ عن رجلٍ يعيشُ وحيدًا ، والجميع يخشاه اسمه عطية ، فاتجهنا نحو بيته .
وجدناه ممسكًا بفأسٍ ويعزق حديقةَ بيتِه ، كان طويلَ القامةِ وقويَّ البنيةِ ، يرتدي عباءةً كجميع الناس ، نظرَ لنا منتظراً ما نقوله فقلتُ:
- مرحباً.. هل لنا أنْ نتحدَّثَ معك ؟
ترك الفأس وقال:
- حسنًا .. اجلسوا !
جلسنا موضع أقدامنا فوق العشب ، فقال لنا:
- ماذا تريدون ؟
صمتنا جميعًا نفكِّر ماذا سنقول حتى قلتُ:
- هل لك عددٌ من الأصدقاءِ ؟
قال:
- ليسوا كثيرين .. لماذا تسأل ؟
كنتُ أريدُ أنْ أراهُ مناسباً أم لا ، ولكنْ وضعَنا توماس أمامَ الأمرِ الواقعِ ، وقال:

- هذه البلاد بحاجةٍ إلى حاكم ونحن نريدك أنْ تتولَّى حكمها .
ضيّق عطيةُ عينيه ، وقال:
- وما وظيفة الحاكم ؟
قلتُ:
- تكون بيده مقاليد البلاد .. يأمرُ فيطاعَ ، وينهَي فيستجابَ له .
غرَّته السلطة ، وأعجبتْه الفكرة ، فقال:
- وكيف أتولى الحكم ؟
اتْبَعْتُ:
- ولكنَّه يكونُ مسؤولاً عن كلِّ فردٍ في الدولة ، لا بدَّ أنْ يوفِّرَ لهم الأمان والغذاء والدواء والمأوى .
وقال فريد:
- لنْ يحدثَ هذا في يوم وليلة .. هذا الأمرُ يحتاجُ إلى صبرٍ منكَ .. ستبدأُ أولًا في تكوينِ عُصبةٍ .
أشار فريد إلى بيتِه الصغير وأتبع:
- وهذا البيت لا بدَّ أنْ يكونَ كبيراً حتى يكونَ به غرف تُدارُ من داخلها شؤونَ البلادِ .. وبعدها سيكونُ أمامك طريقتين لحكم الناس .. إمَّا أنْ تفرضَ نفوذك عليهم وتجعلهم يخافونك ، وإمَّا أنْ تحميَهم وتجعلهم يثقون بكَ ويحبونَك .
قال عطية:
- وأيُّ الطريقتين أَفضلَ ؟

تدخلتُ قائلًا:
- أنْ تجعلَهم يحبونَك .
كان فريد له رأيٌ آخر ، ولكنَّه صمت لأجلِي فقال ياسين:
- نحن جئنا لك ؛ لأنَّنا نريدُ صلاحَ هذه البلاد .. إنْ توليْتَ مقاليدَ الحكم لا تجعلْ الأمرَ يزدادُ سوءاً .
وقال توماس:
- لا تكنْ غليظًا ، وانصر الضعفاء !
وقال فريد:
- ولا بدَّ أنْ تعدلَ وتساوي بين الجميع .. فلا تغدقَ على خاصتك وتتركَ العامة .
يبدو أنَّنا نصبناه رئيساً ، فقلتُ أنصحُه مثلهم:
- واعلم أنَّ الناسَ إذا ضاق بها العيشُ وتغيَّرت معاني الحياة وألوانُها في أعينهم ، هانتْ عليهم أرواحَهم ، ولنْ يخشوا أحداً إذا رأوا ألَّا فرقَ بينَهم وبينَ الأنعامِ سيثورون وإنْ ثاروا لنْ يوقفهم شيءٌ ، ولنْ يكونَ هناك خاسراً إلَّا أنتَ .
أومأَ برأسه إيجابًا وهو يقول:
- وعيتُ قولَكم .

*****

ذهبَ ياسينٌ للقاءِ حبيبَتِهِ وذَهَبَ توماس لبيتِه ولكنَّه أخبرنا أنَّه

سيعود ثانيةً ، أمَّا فريد فاقترحَ عليَّ أنْ نتجوَّلَ في هذا العالَم ؛ لنكتشفَ أشياءاً جديدةً ولكنِّي فضَّلتُ العودةَ لبيتِ ياسين بمفردي .
تفرَّقنا جميعًا واتجهتُ أنا إلى بيتِ ياسين .. عُدتُ محملًا بالخيبة واليأس والإحباط .
كنتُ أرغبُ في عالمٍ مثالي به بشرٌ منزَّهين عن الأخطاء ، وبدتْ لي الأمنية سهلةَ التحقُّقِ ولكنِّي أخفقتُ تمامًا .
دخلتُ غرفةَ النومِ ، واستلقيتُ على الفراش وأنا حزينٌ للغايةِ .
شعرتُ أنَّ حزني لو وزِّع على مدينةٍ كبيرةٍ تعجُّ بالأبراج السكنية ، وعشش الحمام وأفران الخبز والمآذن والأسواق والسيارات ، سيتبقى منه الكثير .. الشعور بخيبة الأمل قاسٍ جدًا .
لم يغبْ فريد كثيراً وجاء .. دخل عندي ، وجلس جواري وأنا مستلقٍ فوق الفراش ، وفي يده حَجَرٌ به ألوانٌ متعددةٌ يعبثُ به ويقلِّبه في كلِّ الاتجاهاتِ ، فقلتُ:
- لماذا جئتَ سريعًا ؟
أجابَني:
- لا يوجدُ شيءٌ مثيرٌ هنا غيرَ الفوضى ، لا يوجدُ فنٌ من أيِّ نوعٍ سوى الطبيعة .. كلُّ البيوت تشبه بعضها واللِّباس موحَّدٌ ، شعرتُ أنَّني أسيرُ في مدرسةٍ كبيرةٍ .
- الفنُ شعورٌ يجسِّده الإنسانُ ؛ لكي يترجمَ مشاعره التي لا يستطيعُ

التعبيرَ عنها ، ولكي يواجه الفناء ، فالفَنُ لا يفنى ، وهؤلاء كانوا لا يشعرون بشيءٍ فطبيعيٌّ ألَّا تجدَ فنون .

- وها هم شعروا !

- غيَّرتُ دفةَ الحديثِ قائلاً:

- فريد .. برأيك هلْ ما فعلناه صوابٌ ؟

قال سريعًا دونَ أنْ يفكِّرَ:

- أجلْ .. رغبتُك أنتَ التي لم تكنْ صواباً من البداية .

- لِمَ ؟

- لأنَّه ما دامَ الإنسانُ يشعرُ ويحبُّ ويكرهُ لنْ تكونَ هناك مدينةٌ فاضلةٌ أبدًا ، فالمدينةُ الفاضلةُ تحتاجُ إلى آلاتٍ وليسَ بشراً .

صمتَ قليلاً وأكملَ:

- لقد كانوا يعيشون في المدينة الفاضلة قبل أنْ يشعروا .

قلتُ متحسرًا:

- ولكنَّهم كانوا لا يشعرون بذلك .

- وما المشكلة !! ليتني أعيشُ بلا شعورٍ ، لقد أهلكتني المشاعر الإنسانية .

- ما يحزنُنِي إنَّني أردتُ أنْ أجعلَهم يشعرون بالسعادة في المدينة الفاضلة ، ولكنِّي حولتُهم من المدينة الفاضلة إلى المدينة المتبَدِّلَة بحَسْبِ رأي الفارابي ، لقد فشلتُ فشلاً ذريعًا ، وشعور الفشل لا يطاقُ .. كيفَ تحمَّل (جمال عبد الناصر) هذا الشعور كلَّما

خاض حربًا ، لقد أشفقتُ على هذا الرجلِ .
ضَحِكَ فريد قائلًا:
- فكِّر معي لماذا الجنةُ عظيمةٌ جدًا ؟
فكرتُ قليلًا ، وقلتُ:
- ربَّما لأنَّها جزاءُ صبرِنا على الشرور والابتلاءات في هذه الدنيا .
أشارَ لي بسبابته وهو يقول:
- هو ذاك .. إذا كانتْ الحياةُ يسيرةٌ كنَّا لنْ نستحقَّ الجنة .. فإذا أحضرتَ لطالبِ كليةِ طبٍ منهجاً يسيراً واختباراً يحلَّه تلميذُ ابتدائي ، هلْ سيصبح جديراً ومؤهلاً ليكونَ طبيباً ؟
- لا .
- إذنْ على قدْرِ صعوبة الاختبار ، تكونُ حلاوةَ الجزاءِ .
غيَّر لي فريد مفاهيماً كثيرةً فخطرَ لي سؤالٌ فضوليٌّ ، قلتُ مغيِّراً دفةَ الحديث:
- لماذا كنتَ على ذمة التحقيقات في السجن ؟
- قضيةٌ سياسيةٌ .. لم تكنْ المرةُ الأولى لِعِلْمِكِ، ولكنْ ربَّما تكونُ الأخيرة .
- ستعتزل السياسة ؟
- سأعتزل إيماني بقضايا كثيرة !
- يئست ؟
- لم أيأس ولكنْ ما الفائدة بإيمانك بقضيةِ تحريرِ وطنك في بلاد

العرب ؟
إمَّا أنْ تُقتَلَ أو يكونَ مصيرُك السجنُ ، وفي الحالتين لنْ تنتصرَ قضيتك بقتلك أو أسرك .. لعلَّها تنتصرَ عندما تُعلِّم أُمي القراءة والكتابة أو تنشر وعياً بدلًا من أنْ تهتف « يسقط النظام « ويضعوك في الأسر ، فعندما يزول الجهل سيسقط الفاسدين تلقائيًا .
- ربَّما معك حقٌ .
- ماذا سنفعل الآن ؟
- لقد حقَّقنا ما أردته وانتهتْ مهمتُنا ، سنعود لعالَمنا .
- وكيف سأعود أنا ؟
- سأعود أولاً وبعدها ستعود أنتَ عندما تحلم بي .
- حسنًا .

*****

في المساء استعددتُ للعودةِ ، وودعتهم جميعًا لربَّما أحلم بالسيد والتر اليوم ، وقد كان .
رأيتُ أنَّني في المصعد الكهربائي أضغط رقم ٩ حتى وقف أمام شقة البروفيسور ، وتحوَّلَ حلمي لواقعٍ .. نظرتُ حولي ، عرفتُ أنَّنا في وقتِ الأصيلِ فطرقتُ الباب .. فتح لي السيد والتر وكان البروفيسور/ سامي جاويش مستلقٍ على أريكةٍ مقابلَ الباب ،

فقلتُ:
- متى خرجتَ من السجن ؟
- اليومَ بعدما أدخلتُك في حلمك عادَ مسعودٌ من حلمه ، وتنازلَ سامي عن المحضر وقال أنَّني وأنتَ كنَّا نساعده في نزع السكين منْ كتفه .
نظرَ لي البروفيسور وقال:
- ادخلْ يا مالِك لم أستطعْ النهوض .
دخلتُ وجلستُ مقابلَه .. كان بصحةٍ جيدةٍ ولكنَّ كتفه مغلف بالقطن والشاش ، وقبل أنْ يتكلمَ البروفيسور قال السيد والتر:
- لم يستطعْ سامي أنْ يدخلَني في حلمي لآلام جرحه .. فلم يستطع حملي .. هيَّا أدخلني أنتَ الآن .
نهضتُ من بينهم وأنا أقول في نفسي « اللعنة على الفضول الذي أوقعني مع هؤلاء « وقلتُ وأنا أغادر:
- لا بدَّ أنْ أذهبَ الآنَ .. ربَّما سأعود لكم في وقتٍ آخر .
قال السيد والتر:
- متى ؟
- حين تنتهي الشرور من العالَم .. وداعًا !
قلتُ ذلك وغادرتُ وأغلقتُ الباب خلفي مقرِّراً أنَّني لنْ أعودَ إلى هنا مرةً أخرى .

*****

بعد عدةِ أيامٍ ، عادتْ حياتي لشكلِها الطبيعيّ قبل أنْ أقابلَ البروفيسور .. يومٌ دراسيٌّ بصحبة أصدقائي ينتهي بسيري مع مريم ، وأعود لبيتي أذاكر بعضَ دروسي ، أقرأ بعض الأخبار السيئة على الفيس بوك ، أتناول الطعام مع أهلي .
كلُّ شيءٍ عاد كما كان .. حياةٌ مملةٌ يهوِّنُها الحبّ .
ليس حبُّ مريم فقط ، ولكنْ الحب في صوتِ أمي وهي تُلِحُّ عليَّ أنْ أكملَ بقيةَ طعامي ، وفي أسئلةِ أبي التي أراها استبداداً ، وفي اقتداءِ أخي الصغير بي وتقليدِه لكلِّ شيءٍ أفعلُه ، وفي اختيارِ صديقٍ لي ليقصَّ لي شيئاً حدث معه ، أو ليحكيَ لي طرفةً أعجبتْه .. فإنْ كانتْ الدنيا اختباراً قاسياً ليؤهلنا للجنة ، فالحبُّ هو اليدُّ الرحيمةُ التي تُرْبِتُ على أكتافنا ؛ لتشجعنا على اجتياز الاختبار بسلام .

*****

اليومَ كان قد مرَّ شهرٌ على اتفاقِ مريمَ وسعيد .. كنتُ أحسب بدقة منذ اليوم الذي أخبرتني فيه
، فقد مرَّ اسبوعان قبل أنْ أذهب للبروفيسور والسيد والتر وأربعة أيام في السجن والعالَم الآخر ، واثنا عشر يوماً منذُ عدتُ إلى هذا العالَم .. فقلتُ لها ونحن عائدين من الجامعة:

- اليوم مرَّ شهرٌ على اتفاق سعيد معك .
قالتْ مريم:
- أعلم .
- وما الذي سوف يتم ؟
- سوف اتصلُ به في المساء وأخبرَه .
- ولِمَ لا تتصلي به الآنَ ؟
أخرجتْ مريم هاتفها من حقيبتها ، وقالتْ:
- حسنًا .
جلسنا على أحد المقاعد قبل أنْ نغادرَ حرم الجامعةِ واتصلتْ عليه ، انتظرتْ قليلًا وقالتْ:
- كيف حالك ؟
صمتتْ قليلًا وقالتْ بارتباكٍ:
- اليوم مرَّ شهرٌ على اتفاقنا .
صمتتْ لتسمعه وقالتْ:
- اتفاق فسخ الخِطبة .. كما وعدتني !
صمتتْ طويلًا وقالتْ:
- كيف يعني .. ألَا تعلمُ أنَّني أحبُّ غيرك ؟!
صمتتْ قليلًا وانفعلتْ قائلةً:
- أجلْ أحبُّ غيرَك .. لِمَ أخجل ؟ الذي من حقة أنْ يخجلَ هو أنتَ لأنَّك أخلفتَ وعدك !

وصل غضبي لمداه فخرجتُ عن صمتي وقلتُ وأنا أشير لها بيدي:
- اعطني الهاتف !
لم تعطني ولكنَّها أغلقتْ المكالمةَ في وجهه ، ومن ثُمَّ الهاتف وقالتْ:
- لا داعيَ لصنع المشاكل .
- ماذا قال هذا الحقير ؟
شهقتْ بضيقٍ وقالتْ:
- قال أنَّه لنْ يتركني حتى يحافظَ على مظهره وكرامته بين العائلة .
- ولكنَّه يعلمُ أنَّكِ تحبين غيرَه !
بَكَتْ مريمُ وقالتْ:
- قال مظهره أهم من ذلك .
قلتُ غاضبًا:
- إنَّه خنزيرٌ .. وكيف عن مظهره أمامكِ أنتِ ؟
لم تردَّ مريم واستمرتْ في بكاءِها ، فربتُّ على ظهرها وأنا أقول:
- لا تبكِ أرجوكِ.. سنرى حل !
لم تردْ مرةً أخرى فمسحتُ دموعها بأطراف أصابعي وأنا أقول:
- قلتُ لكِ لا تبكِ !
فابتسمتُ .. كنتُ أواسيها وأمسح دموعها رُغْمَ أنَّني أريدُ أنْ أبكيَ مثلَها .. إنَّني مثلُ الطفلِ في مشاعري وهذه هي مشكلتي مع

هذا العالَم .
بعدما هدأتْ مريم ، غادرنا الجامعة وقلتُ لها أنْ تخبرَني بما سيحدث في المساء .

*****

ظللّتُ منتظراً مكالمةَ مريم وأنا أتخيلُ السيناريوهات التي من الممكن أنْ تحدثَ
حتى وجدتُها تتصلُ عليَّ الساعة السابعة مساءاً .. فتحتُ المكالمة بلهفةٍ وأنا أقول:
- ماذا فعلتِ ؟
فوجئتُ بصوتِ رجلٍ يقولُ:
- ماذا فعلتْ في ماذا ؟
فقلتُ هامسًا:
- من أنتَ ؟
- من حقي أنا أنْ أسألك هذا السؤال ولكنْ سأجيبك .. أنا خطيبُ مريم وقريبًا سأكون زوجها .
صمتُّ فقال:
- من مصلحتك ألَّا تتصلَ على هذا الرقم مرةً أخرى .
وهكذا انتهتْ حكايتي مع مريم .. نهايةً غيرَ منطقيةٍ البتة ، كالحياة تمامًا !

لا أعلم ماذا حدث معها .. وكالمرة الأولى أغلقتْ هاتفها وتغيَّبتْ عن الجامعة حتى أخبرتني صديقتها فرحة أنَّ مريم ستتزوج قريباً وستكمل دراستها نظام الانتساب ، وتأتي عند الاختبارات فقط .. لم أعافرْ هذه المرة واستسلمتُ ، لم تكن لديَّ طاقةٌ لشيءٍ !
ولكنْ أكثرُ ما أحزنَني ليس انفصالنا ، بل أنَّها ستتزوج من شخصٍ أحمقَ وحقيرٍ لا يستحقُّ قلبها أبدًا .

*****

مرَّت أيامٌ وكنتُ أنتظرُ مصطفى وياسين خارج قاعة المحاضرة على أحد أسوار بنايات الجامعة لندخلَ معًا .. نظرتُ في ساعةِ يدي كانتْ الساعة الحادية عشر ومازالا لم يجيئا ، دقائقٌ وجاء الاثنين .. وقفا أمامي وقال ياسين:
- هلْ علمتَ ما الجديد ؟ رنا أصبحتْ تحبُّ مصطفى ولكنَّه توقَّفَ عن حبِّها !
ضحكتُ وقلتُ غير مصدِّقًا:
- أتمزح ؟
قال مصطفى:
- لا يمزح هذا ما حدث للأسف .. منذُ أيامٍ وهي تعاملني بلطفٍ زائدٍ ، وأمسُ صارحتني قالتْ لي في « الماسنجر» أنَّها تحبني .
قلتُ متشوِّقًا:

- وماذا فعلتَ؟
مطَّ شفتيه قائلًا:
- تلك الكلمة التي انتظرتها طويلًا ، وعندما قالتها لم أشعر بها ..
وجدتُ نفسي أكتبُ لها « ولكنْ نحن إخوة لا أكثر « .
استغربتُ كثيراً وقلتُ فيما مضى أنَّه لا شيءَ ثابتٌ في هذه الدنيا ،
وكل شيء قابلٌ للتغيير .. كان في نفسي استثناء من حبِّ مصطفى
لرنا !
نظر ياسين في ساعة هاتفه وقال:
- المحاضرة الآن .. هيَّا !
جاءتْ لي رغبةٌ وليدةُ اللحظةِ ألَّا أحضرَ تلك المحاضرة ، فقلتُ:
- لنْ أدخلَ .. سأنتظرُكم هنا .
حثَّني مصطفى على الحضور قائلًا:
- كفاك فشلًا .. هيَّا !
- لا تجادلاني !
رضخ الاثنان لأمري ، وغادرا فقال ياسين وهو يغادر:
- كان الله في عوني .. أصبحتُ صديقاً لاثنين بائسين .
جلستُ أنظرُ للمارة وفي خاطري أفكارٌ كثيرةٌ .. كيف انتهتْ
مشاعر مصطفى تجاه رنا ؟
أكان كلُّ هذا الوقت يخدع نفسَه ؟ أو ربَّما عندما رفضتْه أول مرةٍ
توقفتْ مشاعره الحقيقية ، ولكنَّه تظاهرَ بالاستمرار في حبه حتى

ينقذَ نفسه من شعور الرفض الذي يلاحقه ! ربَّما هذا ما حدث وكان لا يعلم ذلك ، حتى صارحته وانتصرَ لكرامتِه فلم يعدْ قادراً على الاستمرار في زيفٍ ووهمٍ لم يتنبَّه لهم سوى الآن .
لا أعرف .. فالمشاعر الإنسانيةُ معقدةٌ جدًا ، تأملتُ كثيراً من أجل مصطفى ، لم أجده بهذا البؤسِ سوى اليوم ، كان ياسين محقَّاً في أنْ يصفنا بالبائسين ، فأنْ تخسرَ شغفك تجاه شعورٍ ما كنتَ تحيا لأجله ، وترى حياتك فجأة بلا معنًى ولا غايةً ، شعورٌ مرعبٌ .. كفيلٌ بأنْ يهلكَ صاحبه ويؤدي به إلى الانتحار لو لم يجد بديلًا عنه ، أو يكونَ عنده إيمانٌ راسخٌ .
بينما أنا جالسٌ وجدتُ شخصاً ما يتجه نحوي من بعيد ، يرتدي عباءةً ، وهناك شالٌ ملتفٌ حولَ خصره وملقًى على كتفه ، أعرف هذه الهيئة جيدًا .. اقتربَ أكثرَ فأكثرَ حتى عرفتُ أنَّه فريد .
كان الطلابُ يرمقونه بنظرةِ استغرابٍ شديدةٍ ، فنزلتُ من فوق السور ، عانقتُه مبتسماً وأنا أقول:
- ظننّتُك أحببّتَ العالَم هناك .
ربتَ على ظهري وهو يقول:
- لنْ يفرقَ معي هنا أو هناك .. ولكنِّي حلمت بك اليوم .
قال ذلك وقفز ليجلسَ جوارِي ، نظر حوله يستكشفُ المكان فقلتُ:
- جامعة القاهرة .

سألني:
- كم مرَّ من الزمان هنا ؟
- عشرون يوماً .
قلتُ ذلك وعمَّ الصمتُ بيننا قليلاً ، حتى قلتُ مبتهجًا وأنا أربِتُ على ظهره:
- لم أصدق أنَّك أتيتَ .. حقاً قد اشتقتُ لصحبتِكَ .
ربَتَ على كتفي مبتسمًا ، فسألتُه:
- هلْ سارتْ الأمور هناك على نحوٍ جيدٍ؟
أومأ برأسه نافياً وهو يقول:
- ربّما ستسير يوماً ما .
- ماذا حدث ؟
- لم يختلفْ الوضعُ كثيراً عمَّا تركتَه ولكنْ إنْ كنتَ في حالك ستعيشُ في أمانٍ .
سكتَ ثمَّ أكملَ سريعاً بعدما تذكَّر:
- صحيح تصارعَ كثيرٌ من الناس مع عطية على السلطة ، وصاروا جماعاتٍ ، كلُّ جماعةٍ لها زعيمٌ ، وكلُّ زعيمٍ يريد أنْ يكونَ هو الزعيم وحدَه ، فأصبحوا يقيمون حروباً يروح ضحاياها مئات ، وحروباً فكريةً تميِّزَ أحدهم على آخر ؛ فنشأتْ بينهم العنصرية .
- وماذا تعتقدُ أنْ يحدثَ فيما بعد ؟
- لا شيءَ .. أعتقد أنَّهم بعد سنواتٍ كثيرةٍ سيصلون إلى ما وصلنا

إليه ، سيقسمون البلاد ، وينشئون مصانع للسلاح ، ويضعون حدود ، ويشعلون الحروب والفتن ؛ لتبقى مصانعهم تجلب لهم المال ، سيعيشون على معاناة الآخرين .. أنا أعرفُ وقاحةَ البشرِ جيدًا .

- وماذا عن ياسين وتوماس؟

- ترَكَنَا توماس منذُ شهورٍ ، ولا نعلمُ عنه شيئاً .

كلُّ من كان يمرُّ من جوارِنا ، كان ينظر إلى فريد بتعجبٍ ، مرَّت فتاةٌ ظلَّتْ ناظرةً له ، فضحكتُ أنا وهو فقال:

- مضحكةٌ ولكنَّها مريحةٌ على كلِّ حالٍ .

قال ذلك وأتبع وهو يسحب ورقةً مطويةً في شال عباءته:

- وأمَّا عن ياسين فقد بعث لكَ هذه .. كتبها منذُ اسبوعٍ وأعطاها لي ، لعلِّي أحلم بكَ في أيِّ وقتٍ .

أعطاني الورقة ونزل من فوق السور ، وهو يعدل نظارته ويقول:

- سأذهبُ أنا .. لقد مكثتُ أكثرَ من ثلاثة أعوام هناك ، أشعرُ أنَّني كنتُ مسافراً .. اشتقتُ لسريري وأهلي كثيراً ، وسأرى ما وضعي بالنسبة للسجن أيضًا .

- انتظر !

قلتُ ذلك وأعطيتُه بعضَ المالِ واتْبَعْتُ:

- للمواصلات .

خبطَ على جبينه وقال:

- عدم التعامل بالمال هناك أنساني !
قال ذلك وأخذهم ، وأعطيته رقم هاتفي لنكونَ على تواصل فيما بعد ، وغادر .
فتحتُ الورقةَ التي كان محتواها :
« لقد خانتني حبيبتي وتركني توماس وها هو فريدٌ رحل ، أصبحتُ وحيداً تماماً ، والعالَمُ شديدُ القسوةِ .. فما حيلةُ ضعيفٌ مثلي سكن الحزن أعماقَه سوى أنَّه ينسحبُ من تلك الحياةِ ويحيا حياةً تناسبه !! فلم أستطعْ أنْ أتعايشَ وسطَ هؤلاء البشرِ .. سئمتُ القتلَ والغباءَ وتحوُّلِ السجايا ، سأعمل في مزرعة كبيرة ، أُطعمُ الدجاجَ ، وأرعى الخيول ،و أزرع الحقول .. الحياة وسطَ الحيوانات ستكونُ أجمل «فتحتُ كراسة محاضراتي وبدأتُ أكتبُ ما أحتاجُ سماعَه .
ربَّما تلك الرسالة لنْ تصلَك أبداً ، ولعلَّها تصلُك ..
« الحياة مليئةٌ بالآلام ، فقدٌ .. فراقٌ .. مرضٌ ..حزنٌ .. كلُّها فتراتٌ مؤلمةٌ ، ما أنْ تنتهيَ فترةٌ حتى يعقبها فترةٌ أشدُّ ألماً ، يتخلَّلُها سعاداتٍ قليلةٍ ، ولكنْ يهوِّنُها الحبُّ والإيمانُ .. الإيمانُ الذي هو حيلتُكَ الوحيدةُ الآنَ في المواجهة ، ولكنْ لا تيأسْ من الحبِّ أيضًا ؛ فهو الذي سيجعلُك تعيشُ في النعيمِ وأنتَ مازلتَ في الدنيا .
فيجبُ أنْ تعلمَ جيداً أنَّ الحياةَ لا تسيرُ على وتيرةٍ واحدةٍ ، ولا بدَّ أنْ يكونَ هناك خيرٌ وشرٌ أيضاً ، وربَّما في ذلك نوعٌ من العدل ، أمَّا

السلامُ الدائمُ والحياةُ الهنيئةُ فهي في الجنةِ فقطْ .
ولكنْ بإمكانِكَ أنْ تغيِّرَ العالمَ من حولِك ، فإذا لم تستطعْ إيقافَ الحروبِ والقضاءَ على المجاعاتِ ، فاطعمْ مسكيناً في طريقك ، وفضَّ نزاعاً بين أطفال حيِّكَ ، كنْ أنتَ الخير الذي تريدُ أنْ تراهُ .
إذا آمنَ كلُّ فردٍ بذلِكَ فسترجحُ كفَّةُ الخير في هذه الدنيا . «
انتهيتُ من الكتابةِ وطويتُ الورقةَ ، ووضعتُها في منتصف كراستي ، ونهضتُ استعداداً للمغادرة .

تمَّتْ بِحَمْدِ اللهِ .



01020439639